

ذكر رسالة عمر بن الخطاب ؓ إلى النيل

قال ابن عبد الحكم 1: حدثنا عثمان بن صالح، عن ابن^(١) لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عمن حدثه، قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين بؤنة من أشهر العجم، فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلها هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لشتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله، [فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يزيد كثيرا ولا قليلا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله]^(٢)، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً، وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر.

(١) هذه اللفظة ليست في الأصل. وفي ب، ج: أبى. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من فتوح مصر.

وهو عبد الله بن لهيعة، أبو عبد الرحمن المصرى. انظر: تهذيب التهذيب (٥/٣٧٣).

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في ج.

1 فتوح مصر، ص ٢٦٤.

قال المقرئى فى (الخطط) 1: وذكر بعضهم أن جاحل الصدق هو الذى قرأ بطاقة عمر رضي الله عنه على النيل.

قلت: وجاحل صحابى يكنى أبا مسلم، ذكره محمد بن الربيع الجيزى فى تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر، وقال: لا يعرف له حضور الفتح ولا خطة بمصر ولا للمصريين عنه حديث، ولم يرو عنه غير أهل مصر. وذكره أيضا ابن يونس وابن زيد وابن منده فى الصحابة.

* قصة أخرى:

زاد النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة، وذلك بدعاء موسى عليه السلام. قال ابن عبد الحكم 2: حدثنا معمر بن صالح، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون، فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء، حتى طلبوا إلى موسى أن ^(١) يدعو الله، فدعا الله رجاء أن يؤمنوا، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا، فاستجاب الله بتطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

* قصة أقام الله تعالى فيها الحجة على فرعون اللعين:

قال البيهقى فى شعب الإيمان 3: أخبرنا أبو على الحسين بن محمد الروذبارى، أنبأنا الحسين بن حسن ^(٢) بن أيوب الطوسى، أنبأنا أبو حاتم الرازى، حدثنا محمد ابن إبراهيم بن العلاء الواسطى بمكة، حدثنا أيوب بن سويد الرملى، عن عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبى حبيب ح. وقال الحكيم الترمذى فى (نوادير الأصول) 4:

(١) فى الأصل، ب: أنه. وما أثبتناه موافق لما فى فتوح مصر لابن عبد الحكم.

(٢) فى ب، ج: الحسين.

1 (٥٨/١).

2 فتوح مصر، ص ٢٦٥.

3 شعب الإيمان (١٣٣/٤).

4 لم نجده فى النسخة التى بين أيدينا من نوادر الأصول فى أحاديث الرسول.

حدثنا عمر بن أبى عمر، حدثنا أبو عمير النحاس، عن أيوب بن سويد، عن عمرو ابن الحارث، عن يزيد بن ^(١) أبى حبيب المصرى، عن أبى الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: غار الماء ^(٢) على عهد فرعون، فأتاه أهل مملكته فقالوا: أيها الملك أجر لنا النيل. فقال: إني لم أرض عنكم. فذهبوا ثم أتوه فقالوا: أيها الملك أجر لنا النيل. قال: إني لم أرض عنكم. فذهبوا ثم أتوه فقالوا: أيها الملك ماتت البهائم وهلك الأبكار، لئن لم تجر لنا النيل لتتخذن إلهًا غيرك. قال: اخرجوا إلى الصعيد. فخرجوا، فتنحى عنهم حيث لا يرونه ولا يسمعون كلامه، فألصق خده بالأرض وأشار بالسبابة، وقال: اللهم إني خرجت إليك مخرج العبد الذليل إلى سيده، وإني أعلم أنك تعلم أنى أعلم أنه لا يقدر على إجرائه أحد غيرك فأجره. قال: فجرى النيل جرياً لم يجز قبله مثله، فأتاهم فقال: إني قد أجريت لكم النيل، فخروا له سجداً، وعرض له جبريل عليه السلام، فقال له: أيها الملك أعدنى ٦ على عبدى. قال: وما قصته؟ قال: عبد لى مملكته على عبيدى وخولته مفاتيحى فعادانى، فأحب من عاديت، وعادى من أحببت. قال: بئس العبد عبدك، لو كان لى عليه سبيل لغرقته فى بحر القلزم. قال له: أيها الملك، اكتب لى كتاباً، فدعا بكتاب ودواة فكتب: ما جزاء العبد الذى خالف سيده، فأحب من عادى، وعادى من أحب، إلا أن يغرق فى بحر القلزم. قال: أيها الملك، اختمه لى. فختمه، ثم دفعه إليه. فلما كان يوم البحر أتاه جبريل بالكتاب، فقال: خذ، هذا ما حكمت به على نفسك.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شجر لهم، وذهبت مواشيهم، حتى يبس نيل مصر، واجتمعوا إلى فرعون، وقالوا له: إن كنت كما تزعم فأتنا فى نيل مصر بهاء. قال:

(١) فى الأصل: عن. وهو خطأ.

(٢) فى ب، ج: النيل.

١ أعدنى: من العدوى، وهى طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك، أى: ينتقم منه.

غدوة يصبحكم الماء. فلما خرجوا من عنده قال: أى شىء صنعت ؟ أنا أقدر على أن أجزى فى نيل مصر ماء ؟! غدوة أصبح فيكذبونى. فلما كان فى الليل قام واغتسل ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافيا حتى أتى نيل مصر فقام فى بطنه، فقال: اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر، فاملأه ماء. فما علم إلا بخير الماء يقبل، فخرج بمصر^(١)، وأقبل النيل يرخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة.

(ح) وقال الحكيم الترمذى: حدثنا عمر، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى به^(٢).

ومن التوجيه بوفاء النيل قول البدر بن الصاحب:

رنا بجفن كسره صحة فحيل^(٣) للوصل دون الجفا
فقلت إذ فاضت دموعى هوى من جفنه الكسر وجفنى الوفا

وقال أيضا:

نيل الدموع قد علا وقد وفا وخلقا
فخاف من عيني الكرا إن زارها أن يغرقا

وقال ابن نباتة:

ونفسى ذنبها كالنيل مدا (وقالوا عود تربتها)^(٤) وفاء
مسوفة متى وعدت بخير تقل سين وواو ثم فاء

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٣) فى الأصل: محيل.

(٤) فى الأصل، جـ: وبالرعد توبتها. والمثبت من ب. وبه يصح وزن البيت.

وقال أيضا رحمه الله تعالى:

قسما حلت عن عهد الوفا بعد مصر لا ولا نيل بكائى
حبها (تحتى وفوقى) ^(١) ويمينى وشمالى وأمامى وورائى
فهى ستى من جهاتى ونيلها ^(٢) سيدى من حيث رقى وولائى
وقال أيضا:

بكرت على منوال أدمع نائح كالنيل ذات وفاء وذات منادى
وقال أيضا:

لى فى القصائد تشيب بها ولها على جريح الحشا باللحظ تذييف ^(٣)
كما حكى نيل مصر جود شايدها لو لم يكن فى وفاء النيل تسوييف

وقال الشهاب محمود يمدح صاحب شمس الدين بن السلعوس:

وكم رام يحكى النيل نيل بنانه فأغنى ولكن فرد قطر عن القطر ^(٤)
وذاك يعم الأرض شرقا ومغربا سواء لديه ساكن القفر والمصر
وحين رأى تقصيره عن وفائه تجنبه واحمر من خجل يجرى

وقال ابن أبى حجلة:

إذا قلت ما بى يا بشينة قاتلى يقول ^(٥) وقتل المستهام أريد
وإن قيل زاد النيل بعد الوفا أقل صدقتم ودمعى ثابت ويزيد

(١) فى ب، جـ: فوقى وتحتى.

(٢) فى الأصل: ولديها.

(٣) فى ب، جـ: تذييف، بالذال المهملة. ومعناها بالذال المعجمة: الإجهاز والتتيميم.

(٤) فى ب: الفطر.

(٥) فى جـ: ويقول.

وقال الصفي الحلبي:

وبشرت بوفاء النيل ساجعة
مخضوبة الكف ما تنفك نائحة
كأنها في غدير الصبح قد صدحت^(١)
كأن أفراجها^(٢) في كفها ذبحت

(١) في ب: سجت.

(٢) في الأصل: إخراجها. وفي ب: أفراجها.

ذكر كتابة البشارات إلى الأعمال بوفاء النيل

قال المقرئى 1: كانت العادة عندهم إذا حصل وفاء النيل أن يكتب إلى الأعمال بذلك، فمما كتب من إنشاء تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى: أما بعد: فإن أحق ما وجبت به التهئة والبشرى، وغدت المسار مبشرة (تتوالى تترى) ^(١)، وكان من اللطائف التى غمرت بالمنة العظمى، والنعمة الجسيمة الكبرى، ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه، وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه، وتلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره الله تعالى - وله الحمد - يوم كذا، فإن هذه العطية تؤدى إلى خصب البلاد وعمارتها، وشمول المصالح وغزارتها، وتقضى بتضاعف المنافع والخيرات، وتكاثر الأرزاق والأقوات، ويتساهم الفائدة فيها جميع العباد، وتنتهى البركة بها إلى كل دار وناد، وكل حاضر وباد، فأذع هذه النعمة قبلك، وانشرها فى كل من يتدبر عملك، وحثهم على مواصلة الشكر لهذه الألفاف الشاملة لهم ولك، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وكتب أيضا:

أولى ما تضاعف الابتهاج به والجلد، وانفتح ^(٢) فيه الرجاء واتسع الأمل، ما عم

(١) فى الأصل: متوالى تترى.

(٢) فى الأصل: وأنفج.

نفعه صامت الحيوان وناطقه، وأحدث لكل أحد اغتباطا لزمه إلى أن يفارقه، وذلك ما من الله به من وفاء النيل المبارك الذى تحيا به كل أرض موات، وتكتسى بعد اقشعرارها حلة النبات، ويكون سببا لتوافر الأقوات، فإنه وفى المقدار الذى يحتاج إليه. فلتذع هذه ^(١) المنة فى القاصى والدانى، لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر والتهانى، إن شاء الله تعالى.

وكتب أيضا:

من لطف الله تعالى الواجب حمده، اللازم شكره، وفضله الذى لا يمل نشره، ولا يسأم ذكره، ومنه الذى استبشر به الأنعام، وتضاعفت فيه الأنعام، ومثل الله ^(٢) الحياة به فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ 1 - أمر النيل المبارك الذى يعم المنجد والمتاهم 2، وتنتفع به الخلائق، وترتفع فيما يظهره البهائم، وقد توجه إليك بالكتاب بهذا التبشير فلان، فأجره على رسمه فى إظهاره مجملا، وإيصاله إلى رسمه مكملا، وإذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها، ويبالغوا فى الشكر لله سبحانه بمقتضاها، وعلى حسب ذلك فاعلم ذلك واعمل به إن شاء الله تعالى. انتهى.

***كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء القاضى الفاضل:

أسمعه الله من خصب البلاد وأمنها، وتوالى نعم الله ومنها، ما يستفز الأبواب طربا، ويبلغ من المسار إربا، ويوضح إلى مبهجات النفوس طريقا مقتربا، ولا برحت ثغور التهانى له بالبشر مفتره، والآمال بسعاداته واثقة، وطالما كانت بغيره

(١) فى الأصل: مدة.

(٢) لفظ الجلالة أثبتناه من الخطط (٤٧٩/١) ليتضح المعنى.

1 سورة يونس، الآية ٢٤.

2 المنجد: الآتى نجدا. والمتاهم: الآتى تهامة.

مغترّة، وأخبار نعمه تقص عليه حين ينزل الله من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، المملوك يقبل الأرض التي نفعها يضاهي نفع السحاب إذا جاد، ويفجر على فيض البحر إذا زاد، وينهى إلى علمه ما من الله تعالى - وله الحمد والمنة - على عباده من ألطافه الخفية الخفية، وبركاته التي لم تزل لكل وعد وفية، وذلك بوفاء النيل المبارك الذي خصه الله تعالى بشمول الرحمة وعمومها، وسبوغ النعمة التي تسر الأنفس بقدمومها، إذ هو عندما يحل البلاد يحليها، ويجللها بالرى فيجلب لها السعادة ويجليها، ويصبح حيث سار وثمر الروض مبتسم، وأين كان فالأيدي لأيديه بأصابعها تنقسم، ومتى قدم حصلت به مسرة القادم، وإذا ما افتخر على ما سواه أقر له كل بالرق، فلو كاتبه البحر المحيط لكتب إليه بالعبد الخادم، طالما بلغت به الآمال كل سول، وانتظرت البلاد انتظار المحب رجوع الرسول، ومر على الأرض فحلت محاسنه كل عاطل، وفتح الغمام نواله فلهذا ضحك البرق المبتسم لبكاء السحاب الهاطل، ولم يبعثه الله تعالى من البلاد البعيدة إلا لطرد المحل وإبعاده، ولما تشبه به الغيث الركام ولم يقدر على (مجاراته فلح في إبراقه وإبعاده، فقد أضحي موردا للخلائق بوروده معنا، وقالت) ^(١) ألسنة (الوجود لقدومه) ^(٢):

ظمئنا منذ غبت فما روينا ثناء عن سواك ولا روينا

وهو الذي يعم خيره وتشمل بركته ولا يقدر على ذلك غيره، ولما كان يوم كذا وكذا جرى على عادته في الوفا، وصافى العباد بعوده إلى البلاد وإن لم يكن موصوفا بالصفاء، فوفي الستة عشر ذراعا، وأوجب الشكر من العالمين فأضحت الألسنة منهم إليه سراعا، ووافى البلاد عندما دعت إليه ضرورتها واحتياجها، واقرن قدومه بالخصب والأمن وإنما يزين الليالي انتظامها وازدواجها، واستولى ^(٣) على الأرض فثبت فيها قدمه، وامتد كالسيف الصقيل فقتل المحل وهذا الاحمرار فيه إنما هو دمه،

(١) ما بين القوسين ليس بالأصل.

(٢) في الأصل: الموجود لقدومه.

(٣) في ب: واستد. وفي ج: وامتد.

فعند ذلك أمر القياس بتخليقه، ورفع الحجر عمن وفي عليه فكتبت تلك الأصابع له وصولاً بتخليقه، ثم حصل العود إلى مكان السد وقد أسبغ الله تعالى منة منه وطولاً، وأطلق ألسنتهم بالشكر وإن من كان من ورائه^(١) قوم لا يكادون يفقهون قولاً، فاجتمع على كسره من هنالك من الجموع، وحاكى كسره الذى هو جبر على الحقيقة كسر قلب يتلوه فيض الدموع، وسطرت والنيل المبارك لم يترك وعداً إلا وفاه، ولا وهذا 1 إلا أخفاه، ولا فريقاً إلا وشمل بإحسانه المعروف منه ذلك الفريق، ولا طريقاً إلا قطعها^(٢) بما وصلت به الأرزاق، وما هكذا عادة من يقطع الطريق، ولا أملاً إلا وبلغه كل منية منه حسنى ومنة، ولا نادياً إلا وتلاه بما يشتمل الأنفس وتلد الأعين، ولا عجب فإنه من الجنة، والأمل من الله تعالى أن يبلغ به المنافع، ويعم بخيره المرباط من الأرض والمراجع، ولا ينثنى عن تلك البلاد إلا وقد ملأ اليمين من اليمن واليسار من اليسر، ولا يودع إلا والجود يحل حيث حل ويسير حيث سار، ولما شملت هذه الرحمة، وكملت هذه النعمة، أحب المملوك أن يكون للمولى من هذه البشرى أوفر نصيب، وأن يقص عليه من أبناء مصر وخصبها ما يذهله عما يؤثر عن مصر قديماً والخصيب، والله تعالى [يجعل]^(٣) أوصاف محاسنه طيبة الأرج، ويهجه بما يتلى على سمعه الكريم من أخبار البحر التي لا يضيق مجال القول فيها، فقد قيل: حدث عن البحر ولا حرج 2.

* كتاب آخر فى وفاء النيل :

من إنشاء القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى:

(١) فى النسخ المخطوطة: وايه. وما أثبتناه من الخطط (١/٤٧٩).

(٢) فى الأصل، ب: وقعها.

(٣) هذه اللفظة أضفناها ليستقيم الكلام.

1 وهذا: الوهد: الأرض المنخفضة.

2 هذه الجملة مثل وليست حديثاً، كما أفاده العجلونى فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (١/٤٢١).

نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا، وأخفاها سبوغا، وأصفاها ينبوعا، وأسناها منقوعا، وأمدّها بحر مواهب، وأضمنها ^(١) حسن عواقب، النعمة بالنيل المصرى الذى ييسط الآمال ويقبضها مده وجزره، ويربى النبات حجره، ويحيى مطلعها الحيوان، ويحنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى: ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ 1. وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا، فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقب، وأمن يوم بشرها من كان خائفا يترقب، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التى حققت الظنون، ووفت بالرزق المضمون، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ 2. وقد أعلمناك لتستوفى ^(٢) حقه من الإذاعة، وتبعده من الإضاعة، وتنصرف على ما نصرفك من الطاعة، وتشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته، وتمده بإيصال رسمه مهناً على عادته.

* كتاب فى وفاء النيل :

من إنشاء الأديب جمال الدين بن نباتة:

المملوك يقبل الأرض لا زالت مبشرة المنازل مبتهجه ^(٣)، معطرة الأرجاء بكل سايرة أرجه، ميسرة الأوقات لمقدمتى سماع وعيان كلاهما للمسار منتجه، مستحضرة فى معانى الكرم على دقيقه تشهد حتى بسطة النيل إنها أرفع درجه، وينهى بعد بعد ثناء بالروض بأعطر من شذاه، ولا ماء النيل وإن كرم وفاء بأوفى من جذواه، وفاء النيل المبارك وحبذا من وفى موافى، ومتغير المجرى وعيس البواد ربه

(١) فى ب، جـ: وأضمنها.

(٢) فى الأصل: لتستر فى.

(٣) فى ب، جـ: مبهجة.

1 سورة فصلت، الآية ١٠.

2 وسورة النحل: ٧٩. وسورة النمل: ٨٦. وسورة العنكبوت: ٢٤. وسورة الروم: ٣٧. وسورة الزمر: ٥٢.

العيش الصافي، ووارد يرد من بعيد بعيد، وجميل لا جرم إذا مده ثابت ويزيد، وحائد إذا تدافع^(١) حب تياره يقلد^(٢) بره ودره من الأرض على كل جيد، وحامل إذا ذكر للخصب في مكان عيده المشهود ألقى السمع وهو شهيد، فالبلاد جبرت بكسر خليجه، واستقامت أحوالها بتعويجه، وأثنت عليه بالآية وسمت لونه الأصهب على زعم الصهباء بأحسن أسائه، وجعلت ماءه قاهرا لهضبة كل سد ولم يسلطها على مائه، وخلق فلات الدنيا بشائر^(٣) مخلقه، وعلق ستره فزكى لونه التبرى على معلقه، وحدث عن البحر ولا حرج، وانفرج البقاع يلوى معصمه فله أوقات اللوى والمنفرج^(٤)، واستقرت الرعايا آمنين آملين، وقطع دابر الجذب حتى ظلمه في هذه الدولة الفاخرة، وقيل الحمد لله رب العالمين، والله تعالى (يملاً له)^(٥) بالمسرات صدرا، ويضع بعدله عن الرعية إصرا، ويسرهم في أيامه بكل وارد يقول الإحسان لمثمله^(٦) لو شئت لتخذت عليه أجرا.

* كتاب في وفاء النيل :

من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر عن السلطان إلى نائب السلطنة بحلب:

أعز الله أنصار المقر وسره بكل مبهجه، وهناه بكل مقدمة سرور تغدو للخصب والبركة منتجه، وبكل نعمى لا تصبح لمنة السحاب محوجه، وبكل رحى لا يستعد لأيامها الباردة ولا لليالها المثلجه، هذه المكاتبه تفهمه أن نعم الله وإن كانت متعدده^(٧)، فإن أشملها وأكملها، وأجملها وأفضلها، وأجزلها وأنهلها، وأتمها

(١) في جـ: يدفع.

(٢) في بـ: بقدر. وفي جـ: يقدر.

(٣) في بـ، جـ: بسائر.

(٤) في بـ، جـ: المنعوج.

(٥) في الأصل، بـ: بجلاله.

(٦) في الأصل: لتحملة.

(٧) في الأصل: متودده.

وأعمها، وأضمها وألمها، نعمة أجزاء المنى والمنح، وأنزلت في أمرك سفح المقطم أنزل سفح، وأتت بما يعجب الزراع، ويعجل المراع 1، ويعجز البرق اللما، ويغل القطاع، ويغل الأقطاع، وتنبعث أفواهه (وأفواجه، ويمد خطاها أمواهه وأمواجه، ويسبق وفد الريح من حيث) ^(١) ينبرى، ويغبط مريحه الأحمر القمر لأن بيته السرطان كما يغبط الحوت لأنه بيت المشتري، ويأتى عجبه في الغد بأكثر من اليوم، وفي اليوم بأكثر من الأمس، ويركب الطريق مجدا فإن ظهر بوجهه حمرة فهو ما يعرض للمسافر من حر الشمس، ولو لم تكن شقته طويلة لما قيست بالذراع، ولولا أن مقياسه أشرف البقاع لما اعتبر ما تأخر من ماء حوله الماضي بقاع، بينا يكون في الباب إذا هو في الطاق، وبيننا يكون في الاحتراق إذا هو في (الاحتراق للإغراق) ^(٢)، وبيننا يكون في المجارى، إذا هو في السوارى، وبيننا يكون في الجباب 2 إذا هو في الجبال، وبيننا يقال لزيادته هذه الأمواه إذ يقال لغلاته هذه الأموال، وبيننا يكون ماء إذ أصبح حبرا، وبيننا هو يكسب تجارة إذ أكسب ^(٣) بحرا، وبيننا يفسد عراه قد أتى بعرار ^(٤)، جسور على الجسور جيشه الكرار، وكم أمست التراع منه تراع والبحار منه تحار، كم حسنت مقطعاته على مر الجديدين، وكم أعانت مرار مقياسه على الغزو من بلاد سيس ^(٥) على العمودين، أتم الله لطفه في الإتيان به على التدرج، وإجراؤه بالرحمة على نقص العون بالتفرج والقلب بالتفريج، فأقبل جيشه بمواكبه، وجاء يطاعن الجذب بالصوارى من مراكبه، ويصافف لجاجة الجسور في بيداء مجبه، ويثاقب القحط بالتراس من بركه، والسيوف من خلجه. ولما تكامل إياه،

(١) ما بين القوسين ليس في الأصل.

(٢) في ب: للاحتراق في الاعراف. وفي ج: الإغراق.

(٣) في الأصل: هو.

(٤) في الأصل: بعراره. وفي ب: بعوار.

(٥) في الأصل: سير. وفي ب: السيس.

1 المراع: مشى في اضطراب وسرعة.

2 الجباب: جمع جب، وهو البئر الواسعة.

وصح في ديوان الفلاح والفلاحة حسابه، وأظهر ما عنده من ذخائر التيسير وودائعهم، ولفظ عموده حمل ذلك على أصابعه، وكانت الستة عشر ذراعا تسمى ماء السلطان، نزلنا وحضرنا مجلس الوفاء المعقود، واستوفينا شكر الله بفيض ما هو من زيادته محسوب، ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود، ووقع تياره بين أيدينا سطورا^(١) تفوق، وعلمت يدنا الشريفة بالخلق، وحمدنا السير كما حمدنا السرى، وصرفنا في القرى للقرى، ولم نحضره في العام الماضي فعملنا له من الشكر شكرانا وعمل هو ما جرى. وحضرنا به إلى الخليج وإذا به أُمم قد تلقونا^(٢) بالدعاء المجاب، وقرظونا فأمرنا ماءه أن يحثو من سده في وجوه المداحين بالتراب، ومر يبدى المسار ويعيدها، ويزور منازل القاهرة ويعودها، وإذا سئل عن أرض الطبالة قال: جننا بليلي، وعن خلجها قال: وهى جنت بغيرنا، وعن بركة الفيل قال: وأخرى بنا مجنونة¹ لا نريدها، وما برح حتى تعوض عن القيعان البقية من المراكب بالسرر المرفوعة، ومن الأراضي المحروثة في جوانب الآدر بالزراوى مبثوثة.

وانقضى هذا اليوم عن سرر مثله فليحمد الحامدون، وأصبحت مصر جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأهلها في ظل الأمن خالدون، فليأخذ حظه من هذه البشرى التى ما كتبنا بها حتى كتبت بها الرياح إلى نهر المجرة إلى البحر المحيط، ونطق بها رحمة الله تعالى إلى مجاورى بيته من لابسى التقوى ونازعى المحيط، وبشرت بها مطايا المسير الذى يسير من قوص غير منقوص، ويتشارك بها الابتهاج فى العالم فلا نصر^(٣) دون مصر بها مخصوص، والله تعالى يجعل الأولياء فى دولتنا يبتهجون بكل أمر جليل، وجيران الفرات يفرحون بجريان النيل.

(١) فى الأصل، ب: مسطورا.

(٢) فى الأصل: نطقونا.

(٣) فى ب، جـ: مصر.

1 المراد قنطرة المجنونة.

*كتاب فى وفاء النيل :

من إنشاء الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى إلى بعض النواب:
ضاعف الله نعمة الجنب وسر نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من الهناء كل آية
هى أكبر من الأخرى، وأقدم عليه فى المسار ما يتحرز ناقله ويتحرى، وساق إليه كل
طليعة إذا تنفس صبحها تفرق الليل وتفرى، وأورد إليه من أنباء الخصب ما يتبرم
به محل المحل ويتبرى.

هذه المكاتبة إلى الجنب العالى تخصه بسلام يرق كالماء انسجاما، ويروق كالزهر
ابتساما، وتتحفه بثناء جعل المسك له ختاماً، وضرب له على الرياض النافحة
خياما، وتقص عليه من بناء^(١) النيل الذى خص الله به البلاد المصرية بوفادة وفائه،
وأغنى به قطرها عن القطر فلم يحتج إلى مد كافه وفائه، ونزهه عن منة الغمام الذى
إذا جاد فلا بد من شهقة رعده ودمعة بكائه، فهى الأرض التى لا يذم للأمطار فى
جوها مطار، ولا يرم للقطار فى بقعتها قطار، ولا ترمد الأنوار فيها عيون النوار،
ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورءوس الجبال، ولا تفقد فيها حلى النجوم
لاندراج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس، ولا تتمسك فى شتاتها المساكين كما
قيل بجياد الشمس، وأين أرض يخذ عجاجها بالبحر العجاج، ويزدحم فى ساحاتها
أفواج الأمواج، من أرض لا تنال السقيا إلا بحرب لأن القطر سهام والضباب
عجاج قد انعقد، ولا يعم الغيث بقاعها^(٢) لأن السحب لا تراها إلا بسراج البرق
إذا اتقد؟ فلو خاصم النيل مياه الأرض لقال عندى قبالة كل عين أصبع، ولو
فاخرها لقال أنت بالجبال أثقل وأنا بالملق أطبع. والنيل له الآيات الكبر، وفيه
العجائب والعبر، منها وجود الوفا، عند عدم الصفا، وبلوغ الهرم، إذا احتد
واضطرم، وأمن كل فريق إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان، إذا كسر وهو كما

(١) فى ب: إنشاء.

(٢) فى ب، ج: نجاعها.

يقال سلطان، وهو أكرم مبتدى، وأعذب مجتنى، (وأعظم منتدى)^(١)، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصه.

وهو أنه في ذا العام المبارك جذب البلاد من الجذب وخلصها بذراعه، وعصمها بخناده التي لا تراعى من تراعه، وحصنها بسوارى الصوارى تحت قلوعه، وما هي إلا عمد قلاع، وراعى الأدب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا في كل يوم بخبر قاعه في رقاعه، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً، وأقبلت سوابق الخير سراعاً، وفتحت أبواب الرحمة بتخليقه، وجد في طلب تخليقه، تضرع بمد ذراعه إلينا، وسلم عند الوفاء أصابعه علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره. فرسمنا بأن يخلق، ويعلم تاريخ هنائه ويعلق، فكسر الخليج وقد كان يعلوه فوق موجه، ويهيل كتيب سده هول^(٢) هيجه، ودخل يدوس زرابى الدور المبتوثة، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثه، وبرق كالسهم من قسى قناطره المنكسرة، وعلاه زبد حركته ولولاه ظهرت في باطنه من بدور أناسه أشعتها المغلوسة، وبشر بركة الفيل ببركة الفال، وجعل المجنونة من تياره المنحدر في السلاسل والأغلال، وملأ أكف الرجاء بأموال الأنواء، وازدهمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد، وهنأت طوابعه بالطوابع التي نزلت بركاتهما من الله تعالى على البلاد.

وهذه عوائد الألفاظ الإلهية بنا التي لم نزل نجلس على موائدها، ونأخذ منها ما نهبه لرعايانا من فوائدها، ونخص بالشكر قوادمها^(٣) فهي تدب حولنا وتدرج، ونخص قوادمها بالثناء والمدح والحمد^(٤) فهي تدخل إلينا وتخرج.

فليأخذ الجناب العالى حظه من هذه البشرى التي جادت بالمن والمنح، وانهلث

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٢) فى الأصل: قول.

(٣) فى ب، ج: فواديهـا.

(٤) فى ب، ج: والجهر.

أياديها المغدقة بالسح والسفح، وليتلقاها بشكر يضيء به في الدجى أديم الأفق، ويتخذها عقدا يحيط منه بالعنق إلى النطق. وليتقدم الجنب العالى بألا يحرك الميزان في هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعط كل عامل في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في إسقاط الجباية خيانة، والله يديم الجنب العالى لقص الأنباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه.

* كتاب فى وفاء النيل^(١) :

(وأفاض بره العميم على الغنى والفقر، والقانع والمعتز¹، وأحيا الأرض بعد موتها)^(٢)، وتدارك برحمته دماء الدهماء بعد إذ أشرفت على فوتها، وأسمع نداها بلسان الحال الخالك قبل صوتها، وأجرى الخلق على^(٣) عوائد كرمه، وأجرى لهم بقدرته من حجب الغيث مواد نعمه، وأعلى لديهم موارد نيلهم حتى كاد ما يشرب بعروق ساقه يتناول بفمه، وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد، وأذن له فى الترفع عن محله فسجد على التراب شكرا وتيمم الصعيد وإن لم يبق به الآن على الأرض صعيد، وأسرى منه ركائب السير ووالى الأقطار، ففى كل ناد من هديره حاد، وفى كل بر من بروده بريد، وذكر بإحياء الأرض بعد موتها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ 2 ، ونشر ألويته على الربى لأهل الأرض بشرا بين يدي رحمة ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۗ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ 3 ، وأقبل بعد تقصير عامه الماضى بوجه عليه حمرة الخجل، وعزم سبق سيفه إلى المحل العذل 4 بل الأجل، واستظهار على كل ما علا

(١) بعد هذا العنوان يوجد بياض بالنسخ الخطية كلها.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب.

(٣) فى ج: قبل.

1 القانع: الذى يسأل الناس. والمعتز: الذى يتعرض ولا يسأل.

2 سورة ق، الآية ٣٧.

3 سورة الشورى، الآية ٢٨.

4 العذل: اللوم. وفى المثل: «سبق السيف العذل» يضرب لما قد فات ولا يستدرك.

من الأرض حتى إن الحرمين باتا منه على وجل، ومهد الأرض التي كانت ترقبه، فهو لها المنتظر على الحقيقة، وطوى بطن الثرى ^(١) ففتح الخصب بينهما وذبح المحل في الحقيقة، وقطع الطرف فأمن كل حاضر وباد، ومقيم وغاد، واتبعه الرى كالروى ^(٢) حين أضحى كالشعراء تهيم في كل واد، وعمت ^(٣) بركاته على الأرض، فتركن كل قرارة كالدرهم من الخصب مربعا، وأربى ريه على ما سلف من السنين، فأضحى كهوى ابن أبى ربيعة، يقيس ذراعا كلما قسن أصبعا، وتجدد على الآكام فخيّل للعيون أنها تسيل، وشيب مفارق الربى بياض زبده وعادة بياض المشيب أن يخضب بورق النيل، وكان ما بقى من المحل قد جعل بينه وبينه سدا، ونشر له وراءه وهو يملئ ويعد له عدا، فصدمه بقلبه وجعله دكا، إذا جاء أمر ربه وأدركه وملكه، وسفك دمه فجرى مستطيلا إذ سفكه، (ووفى بما وعد ^(٤) من ظفره) ^(٥).

* كتاب بشارة بوفاء النيل:

من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر عن الملك المنصور قلاوون إلى النائب بحلب:

أدام الله نعمة المجلس ولا برحت التهاني إلى ربه مزفوفة، والأمانى بالنجاح إلى صقعه محفوفة، والبشائر يهذى إليه منها ما لا يستبعد ببداء ولا يستهول تنوفة 1، والأقاليم تستدنى منها كلما تغدو له عين الرياض محدقة وعين الكمال مطروفة. هذه المكاتبة إليه تشنى على مبراته التى لا تبرح إلى السداد مصروفة، ولا تنفك محامدها على ما يجريه الله من الخيرات موقوفة، وتفهمه بشرى يرى بشرها فى أسارى وجوه

(١) فى ب، ج: الثرى.

(٢) فى الأصل: لا الروى.

(٣) فى ب، ج: وادرت.

(٤) فى الأصل: قعد.

(٥) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

1 التنوفة: القلاة لا ماء فيها ولا أنيس. والجمع: تنائف.

الغمام، ونشرها في صفحات النسيم وأعطاف الكمام، وذلك ما هياه الله من زيادة النيل الحسنة التصريف، والضيف الذي يزور البلاد المصرية في كل سنة ولكنه يؤثر التخفيف، ويأتي ووجهها مغبر، ونبتها ^(١) مصفر، وساكنها مضطر، فما يزاوها إلا وثغرها مفتر، وضرعها قد در، وبرها قد بر، وقسم الخصب لها قد أبر، ورخاؤها قد كر، وجديها قد فر.

ولما كان يوم كذا تكامل وفاؤه ستة عشر ذراعا، (فأتينا المقياس) ^(٢) فضمخنا أركانها، وعطرنا حيطانه ^(٣)، وقلنا لعموده أهلا وسهلا بعمود المصباح، وبشير الأرواح، وديوان الفلاحة والفلاح، والذي هو حقيق بأن يوصف بـ:

دان مسف فوق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح 1

وعدلنا إلى الخليج فإذا عليه أمة من الناس يستسقون بل يستشفون، وأمم كأنهم جان ولكنهم لا يستخفون، ورجعنا وقد طاف بنا من الحرائق كل ذوات أجنحة، وربات خواف وقوادم مترنحة، فاستقبلناهم فقالوا: جاء الخير، وشاهدناهم فقالوا: هذا سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير. فأمرنا بالخليج فتلقف ثعبانه ما صنعوا، ووصل ما قطعوا، وفرق من التراب ما جمعوا، وانقضى هذا اليوم وبشائره قد ملأت الربى والوهاد، وهمت وهامت في كل واد، فيبشر بذلك كل مستسقى سحاب ومستنزله، وكل تالى كتاب ومرتله، وكل مرهف سيف ومجرد مفصله ^(٤)، وكل حالب ضرع، وكل طالب حرث وزرع، وكل ذى إبل وشاء، وكل

(١) في ب، جـ: وبيتها.

(٢) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٣) في الأصل، جـ: أركانها.

(٤) في ب: متصله. وفي جـ: منصله.

1 هذا البيت لعبيد بن الأبرص. وقيل لأوس بن حجر، يصف سحابا كثير المطر.

والمسف: الذي قد أسف على الأرض، أى: دنا منها.

والهيدب: سحاب يقرب من الأرض، كأنه متدل، يكاد يمسكه من قام براحته.

ذى ثغاء ورغاء، وكل ذى صرير وصليل 1، وكل ذى تموين وتمويل، وكل ذى تعويص وتعويل، فإن الجار للجار يفرح، وإذا أصبح هذا بخير من الله فليسأل الله ذاك أن يصبح كما أصبح، والله يجعل دولتنا بالخصب والنماء تفخر، ويضع البركة حيث يحصل اليأس حتى لا يغدو بعض الممالك من بعض يسخر.

*** كتاب (فى وفاء)^(١) النيل:**

من إنشاء ابن عبد الظاهر أيضا عن الملك المنصور قلاوون إلى الملك المنصور صاحب حماء:

ولا برح يبشر بعمل زيادة غوث تنمى، وبكل إفادة غيث تهمى، وبكل إيادة غيث لسمع المحل يصم ولقلب الحدث يصمى، ولا زال يهنا بكل موهبة تجمع خيرات الدنيا والدين، وتؤتى أكلها كل حين، وتأتى من الخصب بالخبر اليقين، وتبين ألطاف مواقع نعم الله بالعام الذى همى هذا المصر عن أخذه بالسنين. المملوك يخدم خدمة ولا كنهه المجرة وقد بدت نجومه تتلقى لوفاء التهاني، ولا كالمقياس وقد خضب أنامله وكحل جفونه فرحا بما حصل له من القرب منا والتداني، ويصف ولاء يتجاذب ماء المزن وماء العيون صفاه، ويتواثب موج البحر وفوح الزهر ليحوز هذا رواءه وهذا رواه، ويطلع العلم الشريف على تجدد نعمى جليلة، وموهبة جزيلة، وإفادة تزين بها خدود الأنهار الأسيلة، وتحسن أهداب العيون التى كانت بإثمى الثرى كحيلة، ويتجمل عارض كل روض ويزهق عذار كل خميلة، وهو النيل الذى أهدى للأمة لطفًا فلطفًا، وإن كان إبراهيم الثرى^(٢) الذى استحق أنه يقال له وفى، وأتت كراماته بها غطى الثرى، وعادة الكرامة أنها تكون كشفا.

ولما كان يوم كذا جاء على عادته فى الزيادة والزيارة، وحضر من معصفّر أثوابه

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: بشارة.

(٢) ليست فى جـ.

1 الصرير والصليل: الصوت.

فى أجمال شارة، وأقبل لابساً من تفريك تياراته فى أحسن لباسه، وتلقيناه فأشخص بين أيدينا شمعة لا تقط ولا تطفى من عمود مقياسه، فضمخناه طيباً، واستشهدنا من أبى تمام ^(١) حبيباً، فأعجبنا من تلاطم أمواجه حسن نشيده ، وراقنا من انبجاسه، وحسن مقياسه، براعة استهلاله وبيت قصيده، وأبنا إلى الخليج فإذا به قد وقف حيث تقف جيانا عند سده، ولما رأنا أقبلنا قبل الأرض وعفر فى الثرى صقيل خده، فأجبنا له الإفاعة والإفادة، وأمرنا بأن يجرى فى زيادته بزيارة منازل القاهرة على العادة، فاحترق كل حجاب، وقالت له منازل القاهرة: كم لى على هجرى من طاقة فهل إلى وصلك من باب؟ وصدرت هذه الخدمة وقد قضينا ما يجب من حق هذا الموسم الذى يستبشر به الدانى والقاصى، (ويحسن بنيله الإقلاع لعسى يتشبه به العاصى) ^(٢)، (ويحمل فيه بر منصوره أعز الله جانبه بسفاحه) ^(٣).

* كتاب فى وفاء النيل :

من إنشاء ابن عبد الظاهر أيضاً:

ولا برح برحمة الله وفضله يستبشر، ومن شكره على نعمه يزيد ويستكثر، ولا زال بأحسن تهانى الأمانى يختص وبأجل ذخائر البشائر يستأثر، صدرت هذه المكاتبة تبشره بنعمى إلى البلاد والعباد قد تحببت، وإلى الربى والوهاد قد تسببت، وبها كل أرض مجدبة قد اهتزت وربت، وذلك أن النيل المبارك قد أجاب داعيه، وجرى ساعيه، وجاء الأمة إليه محتاجة ومحتاجة، ويعقوب مدرجه اليوسفية تود لو قضت ما فى نفسه من حاجة، وحسن فى المناب عن المنافع، وأجل ذراعه فى سد الذرائع، وشهد جنازة المحل حين حمل من زيادته على الأصابع، وأخذ المقياس أهبطه للخلق، وضمخ حتى لا يتميز السحاب عليه بشىء حتى ولا بلمع البروق، وراق الناس منظره الوسيم وأحسن ما كان النيل حين يروق. وشاهد الناس من

(١) فى الأصل، ب، ج: تمامة.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) ما بين القوسين ليس فى ب.

فخار هذا المقياس وعموده ما فات السحائب توطئة وشهودا^(١)، وما أمسى به حين خلق وكان عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا. وكملت المسرة بكسر الخليج الذى هو رحيق مصر المختوم، وعقدها المنظوم، وطراز ملبسها المرقوم، ومجرة سمائها التى كم بها من المراكب أبهى من نيرات النجوم، فليأخذ حظه من هذه البشرى التى^(٢) تستبشر بها السهول والحزون^(٣)، وبحقها لو كتبت الرياض بشائرها على الخدود بهاء العيون، والله يحقق فى سعادته الظنون.

* كتاب فى البشرى بالنيل :

من إنشاء ابن عبد الظاهر أيضا:

هذه المكاتبة تبشره بنعمى تقبل محتالة فتجر على الربى والوهاد ذيولا، وتجرد فى وجه المحل سيفا مسلولا، وهو النيل الذى أتى ووجه الأرض قد اغبر، وثغر يراعه قد بر، والخصب قد افتر، وبره قد أقفر من كل بر، فحسن فى مسرى مسراه، وجعل على اسم مجراه، وجاء يركض فى مضماره فلا يلحق، ويجرى فى تياره فلا يسبق، فكم مسنى قحط دمر عليه من تلك الفجاج فى مسيل^(٤)، وكم ميت جذب عليه التراب فى تلك الجسور قد هيل^(٥)، وكم عروس قرية تبنى^(٦) منها فى مسرى فكان كما قيل مسرى عروس النيل، وتوافى الناس إلى المقياس فسألوا منه عن يقين الوفا أخبر من جهينة، وشاهدوا منه أجمل من جميل، ومن بنانه المخلق أحسن من بنان بثينة، ورأوا من وفائه صادقا لا يجوز عن عهوده ولا يمين 1، وبطلت القاعدة من بنانه المخلق حين وفا من أنه ليس لمخضوب البنان يمين، وكان هذا الموسم من أشرف المواسم لما

(١) فى الأصل، جـ: وتوطيعا.

(٢) فى الأصل: الذى.

(٣) فى ب: والحروف. وفى جـ: والجروف.

(٤) فى ب: سبيل.

(٥) فى الأصل: عيل.

(٦) فى ب، جـ: لله.

1 ولا يمين: أى: لا يكذب.

يشتمل عليه من بشائر تملأ الوجود، ونعمة على الخلائق تعود، ومنة جرى بها من اليبس الماء في العود، وكيف لا ويومها يوم سعد السعود، فليشع هذا الخبر ساعة تبدئ وتعيد، ويوجد بردائها بردا على كبده ويزيد، لا يزال مخصوصا بالاستبشار، تارة بكسر الأعداء وتارة بكسر البحار، وآونة بإحياء الموات بالنيل وحيناً بإماتة الأحياء بالفوات من الكفار.

* كتاب بشارة النيل :

من إنشاء الشيخ بدر الدين بن الصاحب، كتب به إلى ناظر الجيوش يهنته:
ثبت الله سلطان النيل العالى، وأطلق سيوفه في هام السعر الغالى، واستخدم له السحائب، في الجباية لإنفاق الرغائب، وبسط ملكه حتى لا ينظر الصباح وجهه إلا في مرآته، ولا تسحب الرياح أذيالها إلا على حافاته، وأجرى عذبه رضابا 1 في ثغر الإسلام، وجعله عينا له على عدو الأنام ^(١)، ونظم حبابه عقودا في أجياد 2 الرياض، ومتع النسيم بأردافه ليصبح عليه كأجفان الغيد الصراح المراض، وأسمعنا تلاوة مناقبه على كراسى السفن وأعواد منابرها، ورقم محاضر مفاخره على طروسه بالسن باديا وحاضرها، وشنف أسماع الدنيا بأخباره السارة، وعيشته الراضية القارة، وجعل أهله في ثمل من رحيقه، وفي عيد أكبر لا يشان بأيام تشريقه، ولا زالت أصابعه المباركة والمنافع في قبضها، والآمال إذا ضاقت تنبسط ببسطها، والذهب الجامد لا يسبك إلا من ذهبها السائل، والغنى المسبول نصا يفضلها ^(٢) عن حال السائل.

صحت له كيمياء السعد حين وفي إذ فضة الماء أضحي كسرهما ذهباً

(١) في الأصل: الإعدام.

(٢) في الأصل: بنصلها.

1 الرضاب: الريق. ويطلق على رغوة العسل وقطع السكر.

2 أجياد: أعناق. والواحد: جيد.

ولا برحت له اليد البيضاء تعلقو على السواد بالسيوف الحمر، وتفوق الحياة على الممات وتبسط الأصابع للدعاء بطول العمر، ولا زالت موارده موارد الأنس، وحضراته الكونية مستعارة من حضرة القدس، حتى تفتح أقفال الأزهار، وتفصح خرس الأطيوار، ويستنطق ناظره بالتسييح والأذكار، ويطفئ حر الشمس فالأيام به كلها بكر وأسحار، ويصير عمود وفائه كعصا الكليم يفجر^(١) لمنفعة شهور السنة اثنتى عشرة عينا، ويضرب البحر فينفلق يمينا ويسارا ويصير بنطقه كل عين عينا، ويصبح كلسان فى فم مقياسه صادق حلاوة الأخبار لا يعرف مينا، فيطلع طلوع القمر بنسخ آية ليل^(٢) السواد، وينفلق انفلاق الصبح فيحمد مسراه كل العباد، ويوقع قلم الطومار 1 من عمود مقياسه، بنافذ أمره العالى على أطراسه^(٣)، تجرى على عاداته الحسنة، وعلى رسومه ألف سنة، وأن يصير معلومها من الفضة ذهبا، وأن يمد لرزقها من السماء سببا، فمد ظله على الرعايا، وأخرج من زوايا الأرض خبايا، وكتب لها أمانا من النقم، وتمشى فى مفاصلها تمشى البرء فى السقم، حتى حف بالخمائل والروض المثمر على عروشه، فتقر به عين الملك وناظر جيوشه.

فللنيل فخر إذ حكاه أصابعا	خلقن لأرزاق العباد مفاتحا
ولكن أياديه تعم معاليا	إذا غم هذا النيل فينا أباطحا
إذا ضاق صدر الدهر أو أشكلت به	خطوب تراه شارحا ثم سارحا
وإن أذفرت ^(٤) دنيا بأفعال أهلها	شممنا له (مسكا من الذكر) ^(٥) فائحا

(١) فى الأصل: ينجر.

(٢) فى الأصل: الليل.

(٣) فى ب، ج: قرطاسه. وكلاهما بمعنى.

(٤) فى الأصل: أوفرت. وزاد بعدها فى ب: صدر. وأذفرت، أى: اشتدت رائحتها الطيبة.

(٥) فى ج: ذكرنا من المسك.

1 الطومار: الصحيفة. والجمع: طوامير.

فلا زالت الأيام أعياد نعمة بطلعته ما هيج الشوق صادحا 1

*كتاب في وفاء النيل:

من إنشاء الأديب تقى الدين أبى بكر بن حجة^(١) عن السلطان الملك المؤيد شيخ سنة تسع عشرة وثمانمائة:

ونبذى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا فيه بالحسنى و زيادة، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة، وخلق أصابعه ليزول الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة. كسر بمسرى فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا، واتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا، دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه، وشبب خريره فى الصعيد بالقصب، ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب، فضرب الناصرية واتصل بأمر دينار، وقلنا: لولا أنه صبغ بفوه^(٢) لما جاء وعليه ذلك الاحمرار. وأطال الله عمر زيادته فتردد إلى الآثار، وعمته البركة فأجرى سواقى مكة إلى أن غدت جنة تجرى من تحتها الأنهار، وحضن مشتهى الروضة فى صدره، وحننا عليها حنو المرضعات على الفطيم.

وأرشفه على ظميا زلالا ألد من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته 2
الخميرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب، فأرضع جنين النبات، وأحيا له أمهات العصف 3 والأب 4، وصافحته

(١) فى جـ: حجلة..

(٢) فى جـ: بقوة.

1 صادحا: وصف من قولنا: صدح الطائر صدحا، إذا رفع صوته فأطرب.

2 سلافة كل شىء: خالصة.

3 العصف: ورق الزرع الذى يفتح عن الثمرة.

4 الأب: العشب، رطبه ويابس.

كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية، ولبس الورد تشريفه وقال: أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية، ونسى الزهرى بحلاوة لقاءه مرارة النوى، وهامت به مخدرات الأشجار فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى، واستوفى النبات ما كان له فى ذمة الرى من الديون. ومازج الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون، وانجذب إليه الكباد 1 وامتد، ولكن قوى قوسه لما حظى منه بسهم لا يرد، ولبس شربوش الأترج وترفع إلى أن لبس بعده التاج، وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج، فتناول معالم البشير وعلم بأقلامها، ورسم لكل سد بالإفراج، وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بمخلق بشائره، وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره. وحظى بالمعشوق وبلغ من كل منية مناه، فلا سكن على البحر إلا تحرك بساكنه بعدما تفقه وأتقن باب المياه، ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الخور 2، وزاد بسرعة فاستجلى المصريون زائده على الفور، ونزل فى بركة الحبش فدخل التكرور فى طاعته، وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته ^(١)، وأظهر فى مسجد الخضر عين الحياة فأقر الله عينه، وصار أهل دمياط فى برزخ بين المالح وبينه، وطلب المالح رده بالصدر وطعن فى حلاوة شوائله، فما شعر إلا وقد ركب عليه ونزل فى ساحته، وأمست واوات دوائره على وجنات الدهر عاطفة، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة، ومال شبق النخيل إليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالفه. وأمست سود الجوارى كالحسنات فى حمرة وجناته، وكلما زاد زاد الله فى حسناته، فلا فقير سد إلا حصل له من فيض إنعامه فتوح، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح، ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع، فقال له المقياس:

(١) فى ب، جـ: بشامته.

1 الكباد: الأترج.

2 الخور: عنق من البحر يدخل فى الأرض. وقيل: هو خليج من البحر.
والمراد بفم الخور ذلك الخليج الذى أمر بحفره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤ هـ.

عندى قبالة كل عين أصبع، ونشر أقلام قلعوه وحمل على ذا الخريز زمجره، ورام أن يهجم على غير بلاده فبادر إليه عزمنا المؤيدى وكسره.

وقد آثرنا المقر بهذه البشرى التى^(١) فضلها برا وبحرا، وحدثنا عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالا وصدرا؛ ليأخذ حظه من هذه البشرى البحرية بالزيادة الوافية، وينشق من طيها نشرا، فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة، والله تعالى يوصل بشائنا الشريفة بسمعه الكريم ليصير منها فى كل وقت مشنفا 1، ولا برج من نيلها المبارك وأنعامها^(٢) الشريفة على كلا الحالين فى وفا.

وقال القاضى الفاضل فى وصف النيل:

النيل المصرى الذى يكسو الفضاء ثوبا فضيا، ويدلى من الأرض ماءه سراجا من النور مضيا، وتدافع تياره واقفا فى صدر الجذب بيد الخصب، ترضع أمهات خلجه المزارع فيأتى أبناؤها بالعصف والأب.

وقال أيضا:

وأما النيل فقد امتدت أصابعه، وتكسرت بالموج أضالعه، ولا^(٣) يعرف الآن بمصر قاطع طريق سواه، ولا من يرغب ويرهب إلا إياه.

وقال أيضا:

وأما النيل المبارك فقد ملأ البقاع، وانتقل من الأصبع إلى الذراع، فكأنها غار على الأرض فغطاها، وأغار عليها فاستبعدها وما تخطاها.

(١) فى الأصل: الذى.

(٢) فى ب، ج: وأنعامنا.

(٣) ليست فى الأصل.

1 مشنفا: ممتعا. يقال: شنف الآذان بكلامه، أى: أمتعها به.

وقال ضياء الدين بن الأثير:

أما النيل المبارك فقد (تنفس حتى قامت أضالعه، وأشارت إلينا بالخصب أصابعه، حلا مذاقا فحكى جنى النحل، واحمرت صفيحته فقلنا: أتى قاتل المحل).

وقال بعضهم: وأما النيل فقد ^(١) زاد نيله، وتراكم سيله، ولازم المعشوق ملازمة العاشق، وقطع الطريق بكثرة مياهه وكاد يصل بارتفاعها إلى الطارق، وشبك بالخمسة أصابع أصابعه، وأغار على ما هنالك من الضياع الثلاث والعدوية 1 رابعة، وتوجه إلى مصر فعمم جهاتها وما خصص، وأقام بدار النحاس ورصص، وعقدت خيامه بأذيال الجبال الطنب 2، وغسل بمائه الجار الجنب، وأذاق الشجر الأخضر، من محمر ^(٢) مائه الموت الأحمر.

وقال الأسعد بن مماتي:

وأما النيل فقد امتدت أصابعه، وامتأ حتى تكسر بالموج أضالعه، وحلا كما احتلى ^(٣) خلايا النحل، واحمر فكأنه قد سفك دم المحل، قد هاج، فأوتر قسى الأمواج، فسكنت النفوس، وطبقت المياه الأرض فكأنها أنوار الشموس.

وقال أيضا: وجملة الأمر، أن النيل قصر واخضر ^(٤) لون مائه وكان صفاء العيش إذا احمر، وضعفت مدته، وقصرت مدته، فأنكشفت الحال، وانكسف البال، وربما جن فجرى مسلسلا، وظهert فيه حمرة كانت من التقصير خجلا.

(١) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٢) في ب، جـ: محو.

(٣) في الأصل: احتمل.

(٤) ليست في الأصل.

1 العدوية: المراد بها منطقة المعادي.

2 الطنب: جبل يشد به الخباء والسرادق ونحوهما.

ذكر فوائد لطيفة^(١) لها تعلق بالنيل

في (الخطط) 1 للمقریزی: يقال إن أهل مصر أقاموا عليهم مصريم بن بيصر ملكا في (أيام فالج بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، فملك مصر وبني)^(٢) مدينة تشرف على النيل وسماها على اسمه، ويقال إنه الذي غرس بها الأشجار، وكانت ثمارها عظيمة بحيث تشق الأترجة نصفين فيحمل البعير نصفها، وكان طول القثاء أربعة عشر شبرا. (ويقال: إنه أول من وضع السفن بالنيل، وإن سفينته كانت ثلاثمائة ذراع طولاً في عرض مائة ذراع، وأظن ذلك من كتاب أخبار المسعودي)^(٣).

ووصف بعضهم مصر فقال: نيلها عجب، وأرضها ذهب، وخيرها جلب، وملكها سلب، ومالها رغب، وفي أهلها صخب، وطاعتها رهب، وسلامهم شعب، وحرهم^(٤) حرب، وهي لمن غلب.

ووصف آخر مصر فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة^(٥) خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء 2.

(١) ليست في جـ.

(٢) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٣) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٤) في الأصل: حزيم.

(٥) في ب: بردة.

1 (٢٦/١).

2 قال المقریزی في الخطط (٢٦/١): أما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء، فترى الدنيا بيضاء وضياها على روابي وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا في الزوارق.

قال المقریزی فی الخطط 1: من عادة نیل مصر إذا كان عند ابتداء زیادته یخضر ماءؤه، ویقول العامة من أهل مصر: قد توحم النیل، ویرون أن الشرب منه حینئذ مضر. ویقال فی سبب اخضراره: إن الوحوش لا سیما الفیلة ترد البطیحات التي (فیها الماء) ^(١) فی أعالی النیل وتستنقع فیها (مع كثرة عددها لشدة الحر هناك، فإذا وقع المطر فی الجهة الغربیة فی أوقاته عندهم تكاثرت السیول حینئذ فی البطیحات، فیخرج ما كان فیها) ^(٢) من الماء الذی قد تغیر، ویمر إلى مصر ویجىء عقبه الماء الجدید وهو الزیادة بمصر، فحینئذ یحمر الماء لمخالطته الطین الجرز الذی تأتي به السیول. انتهى.

قلت: وما أحسن قول جلال الدین بن الخطیب داریا:

عجبا لنیل دیار مصر إنه عجب إذا فكرت فيه یعظم
یطأ الأراضی فهی تلقح دائما من مائه وهو الذی يتوحم

وفی الخطط 2 للمقریزی: قال المسیحی: إن الصنف المعروف بالبلطی من أصناف السمك أول ما عرف بنیل مصر فی أيام الخلیفة العزیز بالله نزار بن المعز لدین الله ولم یكن یعرف قبل فی النیل، وظهر فی أيامه أيضا سمك یعرف باللبیس. قال وغالب الظن أنه من أسماك البحر الملح دخلت فی الحلو، وإنما سمى اللبیس لأنه یشبه البوری فالتبس به.

(١) ما بین القوسین لبس فی ب، ج.

(٢) ما بین القوسین لبس فی ب.

= وأما المسكة السوداء فإن فی شهور بابه وهاتور وکیهك ینكشف الماء عن الأرض، فتصیر أرضا سوداء، وفی هذه الأشهر تقع الزراعات.

وأما الزمردة الخضراء فإن فی أشهر طوبه وأمشير وبرمهات یكثر نبات الأرض وربیعها، فتصیر خضراء كأنها زمردة.

وأما السیكة الحمراء فإن فی أشهر برمودة ویشنس وبؤونة یتورد العشب ویبلغ الزرع الحصاد، فیکون کالسیكة التي من الذهب منظرا ومنفعة.

1 (٦١ / ١) .

2 (٦٧ / ١) .

وفي كتاب الفلاحة لابن وحشية: ذكر أن في مصر إذا زرعوا يخرج من المد ثلاثمائة مد لحرارة الهواء وكثرة لدونة 1 ماء النيل.

قال أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس في تاريخ مصر: كان بالإسكندرية صنم يقال له شراحيل على (حشفة من حشف) ^(١) البحر مستقبل بأصبعه من كفه قسطنطينية، لا يدرى أكان مما عمله سليمان النبي صلى الله عليه وسلم أو عمله الإسكندر، فكان الحيتان يدورون بالإسكندرية ويصاد عندها فيما زعموا ^(٢).

قال زيد بن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أخبرني أبي عن أبيه: أنه انبطح على بطنه ومد يديه ورجليه فكان طوله قدر الصنم، فكتب رجل يقال له أسامة بن زيد كان عاملا على مصر للوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين: إن عندنا بالإسكندرية صنم يقال له شراحيل من نحاس، وقد غلت علينا الفلوس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ننزله ونضربه فلوسا فعل، وإن رأى غير ذلك فليكتب إلى من أمره. فكتب إليه: لا تنزله حتى أبعث إليك ضمنا ^(٣) أمناء يحضرونه ^(٤)، فبعث إليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة، فضربه فلوسا، فانطلقت الحيتان فلم ترجع إلى ما هنالك.

في (أخبار مصر) للأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فيما نقله عنه المقرئ في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة): أن أول غلاء وقع في أرض مصر كان في زمن الملك الثاني عشر ^(٥) من ملوك مصر قبل الطوفان واسمه أقرس بن مناوش، وكان سببه قلة ماء النيل، ثم وقع غلاء بعد الطوفان في أيام أتريب وهو الثالث عشر من ملوك

(١) في الأصل، ب: حسنة من حسن. والحشفة: صخرة تكون في البحر.

(٢) في الأصل: زرعوا.

(٣) ليست في الأصل.

(٤) ليست في جـ.

(٥) في إغاثة الأمة: السابع عشر.

مصر بعد الطوفان، وسببه أن النيل توقف فلم يجر ماؤه أربعين سنة^(١) حتى أكلت البهائم بأرض مصر ولم يبق بها بهيمة، ومات عامة أهل مصر جوعاً، ورئى أتريب ماشياً، ثم أضعفه الجوع حتى لم يبق به حركة سوى أنه يقبض يديه ويسطهما من الجوع، فلما اشتد الأمر عليه كتب إلى لاوذ بن سام بن نوح بذلك، فكتب لاوذ إلى أخيه أرفخشذ بن سام، فلم يجبه بشيء حتى بعث الله هوداً عليه السلام، فكتب إليه أتريب يلتمس منه الدعاء برفع ما به من أرض مصر، فأجابه هود أنى أدعو لكم فى يوم كذا فانظروا جرى النيل، فلما كان ذلك اليوم جمع أتريب من بقى بمصر من الرجال والنساء فدعوا وضجوا، وكان ذلك عند انتصاف النهار من يوم الجمعة، فأجرى الله سبحانه النيل فى تلك الساعة، إلا أنه لم يكن عندهم ما يزرعونه، فأوحى الله تعالى إلى هود أن ابعث إلى أتريب مصر أن يأتى كهف^(٢) جبلها ويحفر مكان كذا. فكتب هود إلى أتريب يعلمه، فجمع قومه وحفر، فإذا عقود قد عقدت بالرصاص وتحتها غلال كأنها وضعت حينئذ، وهى باقية فى سنبها لم تدرس، فمكثوا ثمانى^(٣) شهور فى نقلها، وزرعوا منها وتقوتوا نحو خمس سنين، فذكر أن أولاد قاييل بن آدم عليه السلام لما انتشروا فى الأرض وملكوها علموا أن حادثة تحدث فى الأرض، فبنوا هذا البناء ووضعوا فيه هذه الغلال، فزرعت مصر وأخصبت وكثر الرخاء ودام مدة مائتى سنة، وبيع كل أردب بدانق 1 وأقل، وكانت مدة ملك أتريب هذا ثلاثائة وستين سنة، وعاش خمسمائة سنة.

وفى الخطط 2 للمقريزى: فى سنة سبع وتسعين وثلاثائة صيد ببخيرة تنيس حوت طوله ذراع، ونصفه الأعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر، على صورة أسد، ويداه فى صدره بمخالب، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر، فحمل إلى القاهرة.

(١) فى إغاثة الأمة: مدة مائة وأربعين.

(٢) فى إغاثة الأمة: تحت.

(٣) كذا بالنسخ الخطية، والوجه أن تكون: ثمانية.

1 الدانق: سدس الدرهم.

2 (١٩٢/١).

وفيهما قال عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني في كتاب (أخبار النوبة) : الجنادل شعاب معترضة في النيل بين أسوان والنوبة، لانصباب النيل فيها خير عظيم ودوى يسمع من بعد، وأشدّها صعوبة جبل معترض في النيل من الشرق إلى الغرب، والجنادل ^(١) تصب من ثلاثة أبواب وربما رجع إلى باين، شديد الخير عجيب المنظر لتحدر الماء عليه من علو الجبل، وسعة النيل هناك من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل. وقيل: إن التماسح لا يضر هناك، ويأتى النيل هناك في وقت الزيادة بخشب الساج والسنط لا يدرى من أين يأتى، ويتشعب النيل عند بلاد علوة على سبعة أنهار، فمنه نهر يأتى من ناحية الشرق كدر الماء، يحف في الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت الزيادة نبع فيه الماء وزادت البركة التي فيه، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد، ف وقعت الزيادة في النيل.

وقيل: إن آخر هذا النهر عين عظيمة تأتي من جبل.

قال المؤرخ: وحدثني ميمون صاحب بلد علوة: أنه يوجد في بطن هذا النهر حوت لا قشر له، ليس هو من جنس ما في النيل.

ثم النيل الأبيض وهو نهر يأتى من ناحية المغرب شديد البياض مثل اللبن. قال: وقد سألت من طرق بلاد السودان من ناحية المغرب عن النيل الذى عندهم وعن لونه، فذكروا أنه يخرج من جبال الرمل، وأنه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ثم ينصب إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض، فإما أن يكون يكتسب ذلك اللون مما يمر عليه، أو من نهر آخر ينصب إلى هذا.

ثم النيل الأخضر، وهو نهر يأتى من القبلة مما يلي الشرق، شديد الخضرة صافى اللون جدا، يرى ما في قعره من السمك، وطعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة.

وحيتان الجميع واحدة غير أن الطعم مختلف، ويأتى فيه وقت الزيادة خشب

(١) في الخطط للمقريزى: والماء.

الساج، والبقم، وخشب له رائحة كرائحة البان، وخشب غلاظ تنحت^(١). وقيل: إنه وجد فيه عود البخور.

ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة. وينقسمان على ألوانهما قريبا من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك، وبينهما أمواج كبار عظيمة تتلاطم.

قال: وأخبرني من أخذ من النيل الأبيض وصبه في النيل الأخضر فبقى فيه مثل اللبن قبل أن يختلطا، وبين هذين النهرين جزيرة، ولا يعرف لهذين نهاية.

والأربعة الأنهار الباقية أيضا تأتي من القبلية مما يلي الشرق في وقت واحد، ولا يعرف لها نهاية، وهى دون النهرين الأبيض والأخضر في العرض وكثرة الخلجان والجزائر، وجميع الأربعة تنصب في الأخضر، وكذلك الأول الذى تقدم ذكره، ثم تجتمع مع الأبيض، والجميع عامرة مسكونة مسلوكة بالسفن، وأحد هذه الأربعة يأتى من بلاد الحبشة.

قال: ولقد أكثر السؤال عنها وكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبرا يقول إنه وقف على نهاية هذه الأنهار، والذى انتهى إليه علم من عرفنى عن آخرين إلى خراب، وأنه يأتى في وقت الزيادة في هذه الأنهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك، ويدل على عمارة بعد الخراب، فأما الزيادة فمجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتي من ذاتها، والذى على ذلك النهر الذى يحف ويسكن بطنه ثم ينبع وقت الزيادة. هذا كله كلام مؤرخ النوبة.

وفى (الخطط) 1: أقام^(٢) حجاج مصر والمغرب زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى إلا بركوب النيل من الفسطاط إلى قوص، ثم

(١) ليست فى ب.

(٢) ليست فى ب، ج.

يمرون من صحراء عيذاب، ثم يركبون البحر المالح إلى جدة، وذلك في بضع وخمسين وأربعمئة إلى بضع وستين وستمئة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى بمصر في أيام المستنصر الفاطمي، فانقطع الحج في البر (إلى أن كسا الملك الظاهر بيبرس البندقداري الكعبة وعمل لها مفتاحاً، ثم أخرج قافلة الحاج في البر، وذلك بعد ستين وستمئة، فاستمر سلوك^(١) الحاج في البر)^(٢).

وفيها مدينة أرجنوس من عمل البهنسا، بها كنيسة فيها بئر يقال لها: بئر سيوس^(٣) صغيرة^(٤) لها عيد في الخامس والعشرين من بشنس، يفور بها الماء عند مضي ست ساعات من النهار حتى يطف، ثم يعود إلى ما كانت عليه، ويستدل النصارى على زيادة النيل في كل سنة بقدر ما علا الماء.

وفيها مدينة أنصنا، كان بها مقياس النيل من بناء دلوكة أحد من ملك مصر، وكان كالطيلسان، وفي دائره عمد على عدة أيام السنة الشمسية، كلها من الصوان الأحمر، ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة إنسان، وكان ماء النيل يدخل إليه من فوهة عند زيادة الماء، فإذا بلغ الحد الذي كان إذ ذاك يحصل منه رى مصر جلس الملك عند ذلك في شرف له، وصعد قوم من خواصه إلى رءوس الأعمدة المذكورة، فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت، ويتساقطون من الأعمدة إلى الملعب 1 وهو ممتلئ بالماء.

قال أبو عبيد البكري 2: ويقال إن التمساح لا يضر بساحل أنصنا لطلاسم

(١) في الأصل: ملوك.

(٢) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٣) في ب، جـ: سوس.

(٤) ليست في ب، جـ.

1 ذكر المقرئى أن هذا الملعب هو أصل مقياس النيل. انظر الخطط (٢٠٣/١).

2 هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، مؤلف جغرافى وعالم بالأدب، وله معرفة بالنبات، نسبته إلى بكر بن وائل، ولد في شلطيخ غربى إشبيلية ثم انتقل إلى قرطبة، وبها مات

سنه ٤٨٧ هـ.

وضعت هناك، وإنه إذا حاذى برها انقلب على ظهره حتى يجاوزها، وفيها يقال إنه كان بالجيزة أحجار ورخام قد صورت فيها التماسيح، فكانت لا تظهر فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا.

قال الكندي في فضائل مصر: لو قايستنا بأنهار الفيوم أنهار البصرة ودمشق لكان لها بذلك الفضل، وليس في الدنيا ما بنى بالوحى غير كورة الفيوم، وليس في الدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا.

* ذكر قصة دفن يوسف عليه السلام فى النيل:

أخرج ابن عبدالحكم فى فتوح مصر 1 عن سماك بن حرب قال: دفن يوسف عليه السلام فى أحد^(١) جانبي النيل، فأخصب الجانب الذى كان فيه، وأجذب الجانب الآخر، فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فحملوها فى صندوق من حديد، وجعلوا فيه سلسلة، وأقاموا عمودا على شاطئ النيل، وجعلوا فى أصله سكة من حديد، وجعلوا السلسلة فى السكة، وألقوا الصندوق فى وسط النيل، فأخصب الجانبان جميعا.

وأخرج ابن عبدالحكم 2 عن ابن^(٢) لهيعة عمن حدثه قال: قبر يوسف عليه السلام بمصر فأقام بها نحوا من ثلاثمائة سنة، ثم حمل إلى بيت المقدس.

وأخرج الحاكم فى المستدرك 3 وصححه عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن موسى عليه السلام حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل

(١) فى النسخ الخطية: آخر. وما أثبتناه من فتوح مصر، وهو أوفق بالسياق.

(٢) فى الأصل، ب: ابن أبى. وفى ج: أبى. والصواب ما أثبتناه من فتوح مصر لابن عبد الحكم، ص ٨١. وانظر تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧٣).

1 ص ٧٥.

2 فتوح مصر، ص ٨١.

3 المستدرك على الصحيحين (٢/ ٤٣٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

عنه الطريق، فقال لبنى إسرائيل: ما هذا؟ فقالوا^(١) له علماء بنى إسرائيل: إن يوسف عليه السلام حين حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. فقال موسى: أيكم يدرى أين قبره؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبنى إسرائيل. فأرسل إليها موسى فقال: دلينا على قبر يوسف، قالت: لا والله حتى تعطيني^(٢) حكماً، قال: وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك فى الجنة. فكأنه كره ذلك، فقالوا له: أعطها حكمها، فأعطها حكمها. فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: تغيبوا عنها الماء، ففعلوا. قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا عظام يوسف، فلما نقلوه من الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار».

قال المقرئ فى (الخطط): فى سنة (سبع وخمسين)^(٣) وخمسة عشر ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيل الحائط الذى كان فى جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السلام إلا حينئذ عند نقصان الماء فى قاع المقياس، فإن الرمل انكشف عنه وظهر للناس، وأكثر الناس ما علموا ما هو.

ذكر المسبحى فى تاريخه: أن فى زمن فرعون جاء الكوشانيون وهم الحبش إلى أرض مصر، وأحرقوا بلادها وقطعوا الماء عنها، فوجه إليهم موسى عليه السلام وهو إذ ذاك شاب فى تربيته ومعه عشرة آلاف فارس من بنى إسرائيل وعشرة آلاف من المصريين^(٤)، فقاتل الحبشة وظفر بهم، وأقام موسى عليه السلام إلى وقت صعود النيل وعرف أحواله، وبنى سدا عظيماً بالحجر والكلس يحفظ الماء عند زيادته، وعاد فى السفن إلى مصر، فخافه الملك وجمع خاصته، ثم بعد ذلك قتل القبطى وخرج من مصر إلى أرض مدين.

وذكر بعض المؤرخين: أنه فى خلافة المستنصر الفاطمى نقص النيل كثيراً،

(١) كذا بالنسخ الخطية. ولعله سبق قلم من النساخ، فقد جاء فى المستدرك: فقال. أو هو على لغة من يقول: أكلونى البراغيث.

(٢) فى الأصل: توطئنى.

(٣) فى ب، ج: خمس وسبعين.

(٤) فى الأصل، ب: البصريين.

فأرسل بطرك النصارى إلى ملك الحبشة بهدية، فتلقيه ملك الحبشة وأكرمه وسجد بين يديه، وسأله عن سبب قدومه، فعرفه أن نيل مصر نقص وأضر بالبلاد وأهلها، فأمر ملك الحبشة بفتح السد الذى يجرى منه الماء إلى الديار المصرية لأجل قدوم البطرك. وأجرى الله النيل من تلك السنة، وزاد فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع وتكامل، ورويت البلاد.

* ذكر إلقاء موسى عليه السلام فى النيل حين ولد :

أخرج النسائى فى السنن الكبرى 1، وابن أبى عمر الصدفى، وأبو يعلى الموصلى 2 فى مسنديهما، وابن جرير 3، وابن المنذر، (وابن أبى حاتم) ^(١)، وابن مردويه فى تفاسيرهم، من طريق أصبغ بن زيد الوراق الجهنى، عن القاسم بن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا. فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان الله وعد إبراهيم. قال فرعون: فكيف ترون؟ قال: فأتمروا وأجمعوا أمرهم على ^(٢) أن نبعث رجلا معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل، ولا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بأجأهم والصغار يذبحون قالوا: يوشك أن ينفوا بنى إسرائيل ويصيرون إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر فيقل نباتهم، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن يستحيون

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) فى الأصل، ب: قال. والمثبت موافق لما فى السنن الكبرى للنسائى.

1 (٣٩٦/٦).

2 مسند أبى يعلى (١٠/٥).

3 تفسير الطبرى (١/٢٧٢)، (١٦/١٦٤).

منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن تغنوا بمن يقتلون فتحتاجوا إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أم موسى بهارون في العام الذى لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة. فلما كان من العام القابل حملت بموسى، فوقع في قلبها الهم والحزن، فأوحى الله إليها أن لا تخافى ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. وأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم، فلما ولدت فعلت به ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى؟! لو ذبح عندى فواريته وكففته كان أحب إلى من أن ألقى بيدي إلى حيتان البحر ودوابه. فانتهى الماء به حتى (ألقى به عند) ^(١) فريضة 1 مستقر جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذنه فحملنه كهيئته ^(٢) حتى دفعنه إلى امرأة فرعون، فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقى عليها منه محبة لم يلق منها أحد من البشر قط".

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عن السدى قال: لما وضعت أم موسى موسى أرضعته، ثم دعت له نجارا فجعلت له تابوتا، وجعلت مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقت فى اليم، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أحجار عند بيت فرعون، فخرجن ^(٣) جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية.

وقال عبدالرزاق فى تفسيره: أنبأنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قال: قذف فى نفسها 2.

(١) فى ب، ج: أرقى به إلى.

(٢) ليست فى ج.

(٣) كذا وردت بالنون فى النسخ الخطية، وهى على لغة من يقول: أكلونى البراغيث.

1 الفريضة من النهر: مشرب الماء منه.

2 انظر: تفسير الطبرى (٢٠/٢٩).

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قال ^(١): قذف في قلبها، وليس بوحي نبوة 1.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قال: يقول: ألهمناها الذي صنعت بموسى 2.

وأخرج عن أبي عبدالرحمن الحبلي قال: إن الله أوحى إلى أم موسى حين وضعت أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، فلما خافت عليه جعلته في التابوت، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في البحر، فخرجت امرأة فرعون إلى البحر وابنة لفرعون برصاء، فرأوا سوادا في البحر، (فأخرج التابوت إليهم) ^(٢)، فبادرت ابنة فرعون وهي برصاء إلى التابوت ففتحتة، فوجدت موسى في التابوت فأخذته فبرئت من برصها 3.

وأخرج عن السدي في قوله: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، قال: هو البحر، وهو النيل 4.

وأخرج عن محمد بن إسحاق قال: لما ولدت موسى أمه أرضعته، ثم جعلته في تابوت صغير ومهدت له فيه، ثم عمدت به إلى النيل فقذفته فيه، فأصبح فرعون في مجلس له يجلسه على شفير النيل كل غداة، فبينما هو جالس إذ مر النيل بالتابوت يقذف، وامرأته جالسة إلى جنبه فقالت: إن هذا الشيء في البحر فأتوني به، فخرج أعوانه حتى جاءوا به، وكانت أم موسى ترفع هل سمع له بذكر، حتى أتى الخبر أن فرعون قد أصاب الغداة صبيا في النيل في تابوت فعرفت القصة 5.

(١) في ب، ج: لما.

(٢) جاء مكان ما بين القوسين في ج: فخرجت امرأة فرعون.

1 المرجع السابق، المكان نفسه.

2 انظر: تفسر ابن كثير (١١٦/٢).

3 أورده الطبري في تفسيره (٣٢/٢٠).

4 أورده الطبري في تفسيره (٣٠/٢٠).

5 أورده هذا الخبر الطبري في تفسيره (٣٢/٢٠).

وأخرج ابن المنذر في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهَا مِنْ جُنُبٍ﴾ قال عن بعد. قال: وقال غير مجاهد: هي على ساحل البحر وموسى يجرى به النيل، وهو في تابوت مقير ظهره وبطنه مقفل عليه، وهي تنظر إليه نظرة وإلى الناس نظرة 1.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن حماد ^(١)، أنبأنا أسباط، عن السدي قال: إنما سمى موسى لأنهم وجدوه في ماء وشجر، والماء بالقبطية: موا. والشجر: سا 2.

* ذكر آية وقعت على عهد موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْأَدَمَ﴾ 3:

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن عبد الله بن كثير ^(٢) عن مجاهد قال: سال النيل دما، فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيبا، ويستقي الفرعوني دما، ويشتركان في إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء طيبا، وما يلي الفرعوني دما ^(٣) 4.

* ذكر تجسير "عوج" على ^(٤) النيل:

قال ابن جريج في تفسيره: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: "كانت عصا موسى عشرة

(١) في ب، ج: مجاهد.

(٢) في النسخ الخطية: عبد الله كثير. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من تهذيب الكمال (٤٦٩/١٥).

(٣) في الأصل: ماء.

(٤) ليست في ب، ج.

1 أورد هذا الخبر الطبري في تفسيره (٣٩/٢٠).

2 انظر: تفسير الطبري (٢٨٠/١).

3 سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

4 انظر: تفسير الطبري (٣٨/٩).

أذرع، ووثبته عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، فوثب فأصاب كعب عوج فقتله، فكان جسرا لأهل النيل سنة" 1.

وقال أيضا: حدثنا ابن بشار، (حدثنا مؤمل) ^(١) حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن نوف ^(٢) قال: كان طول سرير عوج الذى قتله موسى ثمانمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع، وكانت عصا موسى عشرة أذرع، ووثبته حين وثب إليه عشرة أذرع، وطول موسى عشرة أذرع، فضربه فأصاب كعبه، فخر على نيل مصر، فجسره للناس عاما يمرون على صلبه وأضلّاعه. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 2.

قال أبو نعيم في الحلية 3: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن هارون، حدثنا روح، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا أبو بكر بن عياش قال: اجتمع وهب بن منبه وجماعة فقال لهم وهب: أى أمر الله أسرع؟ قال بعضهم: عرش بلقيس حتى أتى به سليمان. فقال وهب: أسرع أمر الله أن يونس بن متى كان في جوف السفينة فبعث الله إليه حوتا من نيل مصر، فما كان أقرب - أو ما عدا - إلا صار من حرفها في جوفه.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، أنبأنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة قال: التقمه الخوت فجرى به في بحر الروم، ثم النيل ثم بحر فارس، ثم في دجلة.

قال القاضي أبو العباس أحمد بن مطرف في كتابه المسمى (بالترتيب): إن قال قائل: ما بال أرض مصر لا ترفع ولا تعلق على ما هي عليه، ونيلها في كل سنة يجرى

(١) ما بين القوسين مثبت من ب، ج. ولكن بلفظ: حدثنا مرسل. والصواب ما أثبتناه. انظر تفسير الطبرى (١٨٥/٦).

(٢) في الأصل: نور. وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه. انظر تفسير الطبرى (١٨٥/٦).

1 أخرجه الطبرى بهذا الإسناد في تفسيره (١٨٥/٦).

2 شعب الإيمان (٤٠٤/٧).

3 حلية الأولياء (٥٠/٤).

إليها تراب البلدان التي يمر بها ويكسوها كلها تراباً غريباً على طول الزمان، فكان ينبغي أن يتكاثر ذلك ويركب بعضه بعضاً، ويعلو حتى تصير أرضها كالجبل العظيم منه لتواتره عليها مدى الدهر؟

فالجواب: أن الحب والتبن والتمر والخشب والكلأ والعشب ونحو ذلك إنما يتولد من الماء والتراب، ألا ترى أن الشجرة تغرس أول أمرها عوداً رقيقاً في الأرض، ثم يغلظ أصلها وتطول ويكثر ورقها، وذلك بقدر ما تأخذ من الماء والتراب في خشبها وورقها، وكذلك التمر والعشب وسائر النبات.

ونقل غير واحد عن كتاب الأدوية المفردة للشریف أبی عبد الله الأندلسی أن الدابة إذا أصابها المغل 1 يكتب على أربع قوائمها هذه الكلمات الأربع: سيحون، جيحون، النيل، الفرات. كيف ما كتبت فإنها تبرأ، وقد جرب فوجد صحيحاً.

رأيت في كتاب (نزهة المذاكرة وأنس المحاضرة)، وهو قديم تاريخ كتابته قبل الخمسمائة، قال: ورد على الخليفة المنصور كتاب (صاحب مصر) يخبره عن نقصان النيل فوقع في كتابه: طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القيادة.

قال ابن الجوزي في تاريخه: في سنة ثمان وسبعين ومائتين وردت الأخبار أن نيل مصر غار فلم يبق منه شيء، قال: وهذا شيء لم يعهد مثله ولا بلغنا في الأخبار السابقة، فغلت الأسعار في مصر بسبب ذلك. وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة قصر النيل فوق الغلاء. ذكره المقرئ في كتاب إغاثة الأمة.

قال: وفي سنة اثنتين وخمسين انتهت زيادة النيل إلى خمسة عشر ذراعاً (وأربع أصابع فقط، فوق الغلاء واستمر تسع سنين متتابعة. وفي سنة ثلاث وخمسين لم يبلغ أيضاً سوى خمسة عشر ذراعاً) ^(١) وأصابع، وانحط سريعاً. وفي سنة أربع بلغ

(١) ما بين القوسين ليس في الأصل.

1 المغل: وجع البطن من تراب. يقال: مغلّت الدابة تمغل مغلاً فهي مغلّة، إذا أكلت التراب مع البقل، فأخذها لذلك وجع في بطنها.

سنة عشر ذراعا وأصابع، وفي سنة خمس بلغ أربعة عشر ذراعا وأصابع، وفي سنة ست وخمسين لم يبلغ سوى اثني عشر ذراعا وأصابع، ولم يقع مثل ذلك في الملة الإسلامية، واستمر الغلاء إلى سنة ستين، فلما دخلت سنة إحدى وستين حصل الوفاء التام وأخصبت الأرض وانحلت الأسعار، وفي سنة سبع وثمانين قصر النيل فوق الغلاء، وفي سنة خمس وتسعين بلغ ستة عشرة ذراعا وأصابع، (وفي سنة سبع^(١) وتسعين بلغ ثلاثة عشر ذراعا وأصابع، واستسقى الناس مرتين. وفي ثمان وتسعين بلغ أربعة عشر ذراعا وأصابع)^(٢)، وفي سنة تسع وتسعين كسر في خامس عشر توت والماء في خمسة عشر ذراعا فنقص وانحط فاشتد الأمر.

قال المقرئ في (الخطط): في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة نقص ماء النيل ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر، وفي سنة أربع وأربعين قصر النيل فوق الغلاء، وكذا في سنة سبع.

قال الذهبي وغيره: وفي سنة ستين وأربعمائة وما بعدها نقص النيل فكان الغلاء العظيم بمصر الذي لم يسمع به في الدهور من عهد يوسف الصديق عليه السلام، واشتد القحط والوباء سبع سنين، بحيث أكلت الميتات^(٣) والجيف وبنو آدم، وبلغ الأردب القمح مائة دينار، ثم عدم أصلا حتى حكى صاحب المرأة: أن امرأة خرجت من القاهرة ومعها عقد جوهر، وقالت: من يملكه بمد قمح؟ فلم يلتفت إليها أحد. وبيع الكلب بخمسة دنانير، والهر بثلاثة دنانير، ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير.

وقال بعض الشعراء يهنئ الخليفة القائم بأمر الله ببغداد:

(١) في ب، ج: تسع. ولعله تصحيف، إذ التسلسل الزمني يقتضي أن تكون سبعا.

(٢) ما بين القوسين ليس في الأصل.

(٣) في الأصل: الحيتان.

وقد علم المصري أن جنوده سنو^(٢) يوسف فيها وطاعون عمواس^١ أقامت^(١) به حتى استراب بنفسه وأوجس منها خيفة أى إيجاس

وفى سنة سبع عشرة وخمسمائة بلغ ستة عشر ذراعا سواء بلا زيادة عليها. وفى سنة ثمانى عشرة أوفى النيل بعد النيروز بتسعة أيام، وزاد على الستة عشر ذراعا أحد عشر أصبعا لا غير، وغلا السعر. وفى سنة ست وسبعين وخمسمائة بلغت الزيادة ستة عشر ذراعا وثلاثى ذراع. وفى سنة سبع احترق النيل حتى صار يخاض، وربى جزائر رملية^(٣) حتى خيف منها على المقياس أن ينقلص^(٤) عنه الماء ويحتاج إلى عمل غيره. وفى سنة تسع وسبعين بلغ النيل ثلاث عشرة أصبعا من تسعة عشر ذراعا، فأضر ذلك بالجدران، وغرقت البساتين، وفاضت الآبار، وانقطعت التراع وكثر كما حصل فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وفى سنة سبع وثمانين عظمت زيادة النيل وغرقت النواحي وكثر رخاء الأسعار بمصر. وفى سنة ست وتسعين وخمسمائة قال الذهبى فى (العبر): كسر النيل من ثلاثة عشر ذراعا إلا ثلاثة أصابع، فاشتد الغلاء وهدمت الأقوات. وفى سنة سبع وتسعين قال صاحب المראה: كان هبوط النيل، ولم يعهد ذلك فى الإسلام إلا مرة واحدة فى دولة الفاطميين، ولم يبق منه إلا الشىء اليسير فاشتد الغلاء والوباء وهرب الناس إلى الأقطار، وكان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأكل من بنى آدم ما لا يحصى، ومات ثلاثة أرباع أهل الإقليم.

(٢) فى ب، جـ: أقام.

(١) ليست فى ب، جـ.

(٣) فى الأصل: رملية.

(٤) فى ب، جـ: يتقيس.

١ طاعون عمواس: أول طاعون كان فى الإسلام، وقع أيام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ثمانى عشرة من الهجرة، وكان ذلك بالشام، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ ابن جبل وامراتاه وابنه، رضى الله عنهم.

قال المقرئى: تـمادى الحال ثلاث سنين متوالية لا يـمد النيل فيها إلا مدا يسيرا، حتى عـدمت الأقوات وهلك أهل مصر جوعا، وقال الناس سنة سبع: افترست الناس^(١) أسباب الحياة. وكتب ضياء الدين بن الأثير يخبر السلطان الملك الأفضل إلى ديوان الخلافة كتابا يقول فيه: فمذ ولى العبد أمر دمشق أولا وأمر مصر ثانيا لم يرد يدا عما سألتـه، ولا نفسا (عما تأملتـه، وكان الناس معه فى أمن قلوب ولين جنوب كأنهم ساكنو)^(٢) الجنة التى لا يـمسهم فيها نصب ولا يـمسهم فيها لغوب، ولما وليهم الخـصم - يعنى الملك العادل - اجتث أحوالهم من أصلها، وأجحف بالبلاد وأهلها فجعل السيئة موضع الحسنة، والخوف مكان الأمانة، فلما اطلع الله على نيته عاقبه وعاقب الناس بجرمه، وكان كعاقـر الناقة الذى أصيبت ثمود بإثمـه، ولقد أصبحت سنيه كسنى يوسف برما^(٣) وجدبا، وليس بمنكر لمن كانت أيامه دهماء أن تكون أعوامه^(٤) شهباء، ويرجو العبد أن تكون ولايته بعده ولاية بر وألطف، وأن يرزق الله الناس أعواما سمانا يأكلن ما تقدم من العجاف، وأن يكون ممن إذا أصاب الله به قوما إذا هم يستبشرون، وأن يجعل عامه هو العام الذى يغاث فيه الناس وفيه يعصرون.

وقال العماد الكاتب 1: فى سنة سبع وتسعين وخمسائة^(٥) اشتد الغلاء، وامتد البلاء، وتحذث المجاعة، وتفرقت الجماعة، وهلك القوى فكيف الضعيف!؟

(١) مثبتة من جـ.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٣) ليست فى ب، جـ، ويراجع الكامل لابن الأثير فلعلها: برما.

(٤) فى ب: أعوانه. وفى جـ: أعياده.

(٥) فى ب، جـ: وتسعمائة. وهو خطأ، فالسيوطى توفى سنة ٩١١هـ.

1 هو أبو عبد الله محمد بن محمد صفى الدين بن نفيس الدين حامد بن أله الأصبهاني، المعروف بعماد الدين الكاتب، مؤرخ، عالم بالأدب، من أكابر الكتاب، ولد فى أصبهان، وقدم بغداد صغيرا، فتأدب وتفقه، ثم رحل إلى دمشق وظل مقربا لصلاح الدين، ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية. توفى سنة ٥٩٧هـ.

ونحف السمين فكيف العجيف؟! وخرج الناس حذارا من الموت من الديار، وتفرقت فرق مصر في الأمصار، ولقد رأيت الأرامل على الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم، تسترق الجياح باللقم.

وفي سنة تسع وتسعين زاد النيل زيادة كثيرة ورخصت الأسعار.

وفي سنة سبع وعشرين وستمائة قال ابن المتوج: بلغ النيل ستة عشر ذراعا وثلاثة أصابع فقط بعد توقف عظيم، ووصل القمح خمسة دنانير للإردب.

وذكر المقریزی: أنه بلغ ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة عشر أصبعا، وأن قاع المقياس بلغ ذراعين. وفي سنة تسع وعشرين وصل النيل ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع، وتأخر نزوله حتى خاف الناس من عدم نزوله فعلا السعر، ثم نزل فانحط السعر. وفي سنة أربع وستين زاد زيادة عظيمة.

وقال ناصر الدين الحسن بن شاور بن النقيب 1 في ذلك:

طبق النيل أرض مصر فلولاً الس فن فيه لما تأتي العبور
فهو عند المثال لوح وقصد سط ر فيه من الجسور سطور

قال الیغموری: وأنشدنی فی ذلك تاج الدین المذكور أيضا لنفسه فی منتصف ذی الحجة سنة أربع وستين وستائة، وقد بلغت زيادة النيل أربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذارعا، وقد دخل إلى دور الجزيرة وقطع الطرق، وقد دعاه إلى دار في الجزيرة الأديب سراج الدين عمر بن محمد الوراق، فباتوا بها وهم خائفون من الماء:

هجم النيل فی البيوت على النا س وثنى فيهم بقطع الطريق
نقب الدور والبساتين لما جاء يسعى من كل فج عميق

1 هو ناصر الدين، الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن بن النقيب الكنانى، المعروف بالنقيسى، شاعر، من أفاضل مصر. توفي سنة ٦٨٧ هـ.

قال الیغموری: وأنشدنی فی ذلك تاج الدین أبو نصر مظفر بن محاسن بن علی بن نصر الله الدمشقی لنفسه بديها:

قد دعانى خلى إلى الروضة الغنداء للهو وارشاف الرحيق
قلت: مهد عذرى ودعنى فإنى عاجز عن زيارة يا صديقى
هجم النيل فى البيوت على الناس وثنى فيهم بقطع الطريق

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة وصل النيل إلى خمسة عشر ذراعاً وثلاث ذراع، فلم يوف وغلت الأسعار، وفى سنة أربع وتسعين وستمائة أوفى النيل فى السادس من أيام النسيء وكسر، وبلغت زيادته ستة عشر ذراعاً وسبعة عشر أصبعاً، ثم هبط ولم يثبت وحصل بديار مصر غلاء شديد، ووصل الإردب القمح ثمانية مثاقيل ذهب ونصف مثقال، وذلك مائة وسبعون درهماً نقرة 1.

وقال الشهاب البزاعى فى ذلك من قصيدة طويلة:

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم سجام 2
ومد به من الأموات سيل لنقص عبابه منه تمام
عروا مما عراهم فى شعاب ال أسى وجرت مدامعهم فعاموا
قضى بعض على بعض من الحزن واستولت على الموتى الهوام
فلا دار يقر بها قرار ولا سفر يجر له زمام
ولما أن نأت عنهم جميع ال بلاد بكتهم (١) حتى الشأم
وماتت خيلهم حتى المواشى وأخلى السرج واجتنب اللجام

(١) فى جـ: بكتهم مصر.

1 النقرة: القطعة المذابة من الذهب أو الفضة.

2 سجام: أى: غزيرة.

وباد الزارعون وخلفوا ك
وأرباب الصنائع قارنتهم
وأسواق البضائع حل فيها
ودارت بين أصحاب الملاهي
ولم تجد الجدود ولا الموالي
ترى الفرسان تحسبهم رفاة
تفطر منهم الأكباد جوعا
وأما الأغنياء فقد أباحوا
وأخلى السقم فيهم كل كيس
وجادوا بعد بخل واحتكار
تساوى العبد والمملوك والح
وأقوت 3 دورهم من كل قوت
فلو وصف الطيب لهم شرابا
ولو قال: اطعموا لحما ولو كا
لما وجدوا من الأغنام إلا
ولو طلب الدجاج (لعز جنس)^(٣) الطي

ل ما زرعوا وفاتهم الصرام 1
نحوس للكساد بها لزام
وقوف للعقود به قيام
هموم أخرستهم لا مدام 2
وأحجم عن سيادته عصام
من الأحداث قبل البعث قاموا
كان الفطر عندهم صيام
حمى الأموال وانخرم النظام
تولى ختمه سام وحام
ولولا الخوف ما جاد اللثام
ر والبخلاء منهم والكرام
وشتت شملهم^(١) حتى الرخام
لما وجد الإناء ولا القرام^(٢)
ن من جدى ونى 4 منه العظام
خيالات تسندها العظام
ور جميعها حتى النعام

(١) فى ب، جـ: شملها.

(٢) فى ب، جـ: القوام.

(٣) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: أمير جيش.

1 الصرام: جنى الثمار.

2 مدام: أى: خمر.

3 أقوت: خلت.

4 ونى: ضعف وأعيا.

فهم أبدا سهارى بل سكارى بكأس همومهم وهم نيام
ولولا أن مصر كنانة الله فى الدنيا وأسهمها العوام
لما صبرت على جور^(١) وقحط وليس بها لغيرهما اهتضام
عسى الرحمن أن يرضى عليهم ويجرى نيلهم فهو السلام
ورحل الشهاب البزاعى فى هذه الكائنة إلى عدن، ثم عاد وأنشأ مقامة فى ذلك
وهى هذه:

"أخبرنى بعض الإخوان، الخائف من صروف الحداث، المتألم من نوائب الزمان،
المعروف بين التجار بتردد الأسفار، وركوب الأهوال والأوعار، من الأنجاد
والأغوار، وطى مشقق مشقات الفياقى والقفار، وشق تيار زواجر البحار، قال:
خرجت من مصر عام القحط والوباء، صارما عنان عزيزتى عنها هربا، مستلقيا
خشونة صحبة أعراب الصحراء، متجرعا بكف المكابدة أكواب^(٢) نكد الزمن^(٣)،
طالباً بلاد اليمن، قاصداً من سواحلها مدينة عدن، قال: فلما وصلت إليها، ووقع
بصرى عليها، ألفتيتها مشرقة الظواهر شاهقة الطوارم 1، مشرفة المناظر، قائمة
الأسواق، على ساق الإنفاق، مجلوبة إليها الأرزاق، من سائر الآفاق، بيد أنى
وجدت المقام بها شظفاً، والنفقة مع تغييرها سرفاً، وبنیان أمل المقيم بها على شفا.
قال: فلما حللت بساحتها، ومزجت كأس نعيمها براحتها، وحليت بالخبرة أسطر
معانيها، وجلت بالتجربة سكان مغانيها، لم أجد بدا أن أتخذ من أهلها جيراناً، ومن
التجار^(٤) الواردين إليها أصحاباً وإخواناً، وعزمت أن أجعلها لى مسكناً، وأريح

(١) فى جـ: جوع.

(٢) ليست فى بـ، جـ.

(٣) فى الأصل، بـ: إلزاما.

(٤) ليست فى جـ.

1 الطوارم: جمع طارمة، وهو بيت من خشب كالقبة.

راحلة بدنى (من الضرب)^(١) في الأرض بالكد والعنا، ثم وقع الاختيار بعد الاختبار، على مسائلة بعض من صحبت من التجار، الواردين إليها على سبيل المقام، والتردد بأسفاره إلى بيت الله الحرام، وكان ممن ملت بالصحة إليه، وجعلت كل كلها عليه، عن فصول ربيعها والخريف، وحلول شتائها والمصيف، وما يختص كل فصل فيها من الفواكه والخيرات، وما بناديا وبأودية حواضرها ونواديها من المتنزهات، وكان ممن يوصف بجوب البلاد، ونعت الأغوار منها والأنجاد، وممن طاف^(٢) أقاصى الأمصار، ونقل عن ثقات قطانها نواذر الأخبار، ومسح بساحتها كرة المشارق والمغارب، وصوب وصعد في أودية الديانات والمذاهب، ورصد من جميع الآفاق بجمع الأوفاق نيرات الكواكب، وحكم على كل إقليم تبشر طالعه والمغارب.

قال: فلما سمع فحوى كلامى، وتيقن نقض إبرام عزمى عن سقامى^(٣)، قال: سألتنى عن شبكة حصلت فيها على حيرة الحيتان، وورطة غصت في وحلها إلى الأذان، لكن إن يسر الله الخلاص منها ولو بعد حين، لأخصنك من نبئها^(٤) بالخبر اليقين.

قال الراوى: فلما قضيت على العادة حضرتى^(٥) التجارة، وقرنت بين عمرتى وربحها والخسارة، وتجهزت للسفر فى بعض جهازات التجار، وتبضعت ما اخترته من أنواع البر وأصناف البهار، ثم إنى ودعته ووعدنى^(٦)، وسألنى كتمان ما استودعنى، هذا وهو متأسف على ما به من الآلام، نادم على ما عزا^(٧) عليه بعدى

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) فى الأصل: طاب.

(٣) فى جـ: مقامى.

(٤) فى الأصل، جـ: نباتها.

(٥) فى جـ: حرثى.

(٦) فى ب: ووعدنى. وفى جـ: وأودعنى.

(٧) فى ب، جـ: غرم.

من المقام. قال: فلما وصلنا عيذاب ورد علينا بعد المشيب عصر الشباب، وحلت
لقدومنا حبي 1 الترحاب، من تلك الرحاب، وطلعت شمس سعادنا بعد
أفولها، وأورقت غروس راحة نفوسنا بعد ذبولها، واعتذر البحر إلينا بعد هيجانه
وانزعاجه، وسكن ما كان من زعزع رياحه وتلاطم أمواجه.

ولما حل مركبنا محلى بجأوى فى أمان الله راسى^(١)
وفزنا بالسلامة بعد هول البحار ووضع رأس بعد راسى
تبينت البطون ومن مراس الـ خروج أو الدخول من المراسى

وأصلته من كتاب بعد كتاب، فى الدوائح^(٢) المدبرة والجلاب 2، واصفا له ما
أجد من^(٣) الأشواق، مبتهلا إلى الله تبارك وتعالى أن يسرنا بعد الفراق بالتلاق،
وكتبت إليه أبياتا أصف فيها بعض محاسن من صحبتته فى السفينة، من (اشتمالها بنا
على)^(٤) الوقار والسكينة، وما مر لنا فيها من الأوقات، الخالية من الآفات، الحالية
بالأمن والمسرات:

الله در عصابة رافقتهم فى اليم من عدن إلى عيذاب
تجرى بنا فلك السلامة دائما كالأيم بين^(٥) جزائر وشعاب
تحدو بها ريح الصبا فتمر من^(٦) طرب على الدماء مر سحب

(١) فى الأصل: ربى.

(٢) فى الأصل: الدوائج. والدوائح: جمع دائحة، وهى الشجرة العظيمة.

(٣) فى الأصل: بين.

(٤) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: حاز.

(٥) فى ب، جـ: من.

(٦) فى ب، جـ: فى.

1 حبي: جمع حبة، بثليث الحاء المهملة، ما يحتبى به من ثوب وغيره. يقال: احتبى الرجل بالثوب، إذا
أداره على ساقيه وظهره وهو جالس جلسة الاحتباء.

2 الجلاب: ماء الورد.

فكأننا فيه خيال سائر
وكأننى فيهم حبيب زائر
ما منهم إلا كريم فاضل
حال بكل فضيلة خال من الـ
فابن^(١) الكويك له أعز مكانة
أعنى أمين الدين فهو أحق من
وكذا جمال الدين حاز فضائلا
أعنى ابن صقر واسمه بين الورى
يهوى المعالى والمحامد والثنا
وبقية الأصحاب كل منهم
ما شاهدت عيني سواهم داخلا
صرفت صرف الهم من أوصافهم
(وغدا المزاج عليهم فسقاهم)^(٤)
ولو اطلعت عليهم لوجدتهم
لا زال نجم سعودهم فى أوجه
ما افتر ثغر البرق فى وجه الدجى
من عاشق كلف إلى الأحباب
أو غائب متلذذ بإياب
حسن الفكاهة طاهر الأنساب
خيلاء والفحشاء والإعجاب
فى كل مكرمة ولست بحابى^(٢)
تثنى عليه ألسن الآداب
ومراتبا عزت على الطلاب
يغنيه تعظيما من الألقاب
فنداه 1 مبذول بغير حجاب
نال الذى يرجو بغير حساب
فى حسن عشرته مع الأصحاب
وصفت سرائرهم من الأوصاب^(٣)
كأس الرضا ممزوجة بتصابى
عند الصلاة أئمة المحراب
تجرى مدى الأعوام والأحقاب
وانهل وبل من جفون سحب

(١) فى الأصل: فابن. وفى ب: فباين.

(٢) فى ب، ج: محابى.

(٣) فى الأصل: الأوصاف. وهو مناف للقافية. والأوصاب: جمع وصب، وهو المرض.

(٤) ورد هذا الشطر فى الأصل هكذا: فسقاهم وغدا المزاج عليهم.

1 فنداه: أى: جوده وسخاؤه.

ثم عزمت بعد ذلك على طى البيد، والهبوط إلى ما قرب أو بعد من بلاد الصعيد، واستصحبت رفقة أعراب قد وضعت على الفساد قواعدها، وتشعبت آراؤها ومقاصدها، فسلكوا بى طريق صحرائهم أسودها وأساودها، مستعرة بالسموم غيطانها وفدافدها 1، ممزوجة بحميم الجحيم مواردتها، فتلوت عند ذلك ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ 2، ثم بعد العموم من الهموم والخصوص، من الله تبارك وتعالى بوصولي إلى المدينة قوص، فوافيت البلاد عقب الحصاد قرى قد قدر فيها السير، وعم جميع جهاتها الخير، ذات سواق تشوق القلوب بحنين دورانها، وتسوق طرف الطرف 3 في ميادين روحها وريحانها، مطردة أنهارها، يانعة ثمارها، متجاوبة طربا أطياريها، ظلها ظليل، وماء جداولها سلسبيل، قد ناب نيلها عن الأمطار^(١)، ورطب ليلها ما جففه النهار، زيادات نيلهم عن تجاربهم موروثه، وعهود موافاتهم إلى لقاء المفرد^(٢) بساحله غير منكوثه، وكاسات لذاتهم بغنم محاضرتهم محثوثة:

إذا انحدرت حراقة المفرد ارتوت بلادهم شرقا وغربا (إلى مصر)^(٣)
 وإن عاقها من حادث الدهر عائق فعسر إلى عام جديد بلا يسر
 ولم أر أرضا كالصعيد صباحة إذا شربت من ماء^(٤) عشرين فى الحر
 يمد عليها النيل فى العام مده ولكنه مد يؤول إلى جزر
 فيجعلها بحرا يعب عبابه وتبدو القرى فى الشرق والغرب كالجزر
 إلى أن يعم الجانبين بريه^(٥) فيطويه من قد كان أذن بالنشر

(١) فى الأصل: الأوطار.

(٢) فى الأصل الفرد . والمفرد هو المبشر بأحوال وفاء النيل.

(٣) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٤) ليست فى ب، جـ.

(٥) فى ب، جـ: سريه.

1 فدافدها: الفدافد جمع فدغد، وهى الأرض الواسعة المستوية لا شىء بها.

2 سورة مريم، الآية ٧١.

3 الطرف: الكريم من الناس والخيول ونحوها.

لها كل فصل ملبس ترتدى به وخصت بأمن وانتصار مدى الدهر
فبر^(١) صيفها قارورة وخريفها فعنبرة سوداء طيبة النشر^(٢)
وأما شتاها فالزروع زمرد ويرجع فى فصل الربيع إلى التبر

ثم انحدرت إلى مصر فى أطيب عيش وأحلاه، وأقرب زمان وأهناه، أما القاهرة فقد طال صيتها^(٣) فى البلاد، بكثرة العساكر والأجناد، إن ركبوا فأفخر زى ولباس، وإن ركنوا فإلى ركن شديد لباس، راسخ الأساس، جيوش على الأعداء منصوره، وبتأييد الملائكة مسروره، ألويتهم فى الخافقين خافقه، وألسنة صوارمهم فى جماجم الأعاجم والروم ناطقه، ورماح سراياهم إلى تشتيت شمل الطغاة شارعه، وقلوبهم إلى التلطف بالرعايا وحفظ البلاد مسارعه مطاوعة، ولإجابة داعى الحق سامعة^(٤):

كأنما نشأوا عن روضة أنف خلقا وخلقاً عن الصفاح والعمد
حاطوا البلاد عن الأعداء قاطبة حتى غدا الذئب مرعياً مع النقد^١
فلو مشت نملة حول الفرات لطا روا نحوها بالخيـل والعدد
قوم أقاموا رواق العز فوقهم واسترغدوا العيش بعد الكد والنكد

(١) فى ب، جـ: قتر.

(٢) فى الأصل: الشر.

(٣) فى الأصل: أطال وصيتها.

(٤) فى الأصل: مسارعه.

^١النقد: صغار الغنم.

فإن طلبت حياة النفس طيبة فعن جوارهم يا صاح لا تحد
ناهيك عن بلدة زاد الإله لمن يحلها بسطة فى الجاه والجسد
يجبى إليها من الخيرات أطيبها فأهلها فى نعيم دائم الأبد
قصورها بجمال الغيد خالبة والعقد فى الجيد يبدى الحسن فى الجيد

تجربى بها سفن اللذات فى خلع نيل المسرات فيها زائد المدد
تجاور الناس فيها بالجميل (فأضد حى) ^(١) كلهم خلا من سورة الحسد
يا طيب أوقات من قضى بها وطرا واختارها مسكنا للأهل والولد

وأما مصر فقد خصت بالأكياس من سائر الناس، يتنازعون بين كؤوسهم
الإيناس، ممزوجة بطيب الأنفاس، وسلسال سلسيل ماء المقياس، ويتقلبون فى
أسواقهم بين أعياد و أعراس، لا يتنادمون بغير القصف والخلاعة، ولا يتحاكمون
إلى غير السمع والطاعة. ضمت نسيات ^(٢) روض الأنس شملهم فكل خل بما قد
ناله راض، فعل اللذات حال بينهم أبدا والعيش أطييه حال بلا ماض. ثم
انحدرت إلى ثغر الإسكندرية أو أن خليجها الكافح، وطالع سعده اللائح، وحس
سواقيه السوانح للسوانح 1، ونغمات مزملاتها الصوادح 2، وفصاحة مشاشات
ولدان أعرابه لكل منحدر أو مصعد ممازح، ونسيم جوه الندى الأريج، ونشر أترجه
ونارنجه البهى البهيج، وزهو نخيله المرخى الأكمام، وزهر روضه المبتسم لبكاء
الغمام، وحسن قنطره المحنية لطول القيام، على برد من مائه وسلام. لكن عيش
التجار لا يصفو من الأكدار، ولا يقر لهم بدار قرار؛ لأنهم فى فلك من الهموم دوار،
آناء الليل وأطراف النهار، إن خرجوا فى مغاولة بطون البحار، ومعاونة الشد

(١) هذه الكلمة ليست فى الأصل.

(٢) فى الأصل: نيرات.

1 السوانح الأولى صفة للسواقى، وهى بمعنى دورانها من المياسر إلى الميامن، وبه تتفاعل
العرب. والسوانح الثانية من قولنا: سنح الشيء، إذا استقبله بيده.
2 الصوادح: جمع صادحة. يقال: صدح الطائر، إذا رفع صوته فأطرب.

والترحال، بمفاوز القفار، دخلوا فى جوف ما خف أو ثقل من أصناف البهار، فقد
اشتغلوا عن لذة المأكول والمشروب، بكد الأبدان ونصب القلوب، فأمالوا
الأسماع، عن نغيمات السماع، ونفروها عن مواعظ الجوامع، واستحثوها إلى
الاستخبار عن أسعار البضائع، لا تخطر متنزهات الدين لهم بخاطر، ولا يطوف
بقصور الرمل لهم باد ولا حاضر.

وأنشد:

كم حل فى هذه ^(١) الأسفار ذو حيل	وحال والحرص للأثقال حمال
يمزق العمر فى ترقيع سفرته	لشقة السير قطاع ووصال
طورا يساير سيدان 1 المفاوز لا	يثنيه عن شاسعات الدو 2 أهوال
فى كل خبت 3 له عيش يدل بها	عزم له إن ونت وخذ 4 وإرقال ^(٢)
وتارة فى عباب اليم مقتعرا ^(٣)	(دهماء ظل) ^(٤) لها فى الموج تصهال
يجوب شرقا وغربا فى طلاب مشقة	ات بها لحديث النفس تجوال
حتى إذا ما طواه الموت وانقطعت	من جبل آماله فى الترب أوصال

(١) فى جـ: لذة.

(٢) فى ب: وإزقال . والإرقال: الإسراع فى السير.

(٣) فى ب: معتقدا.

(٤) فى ب، جـ: وهما فلك.

(٥) فى ب، جـ: أهله.

(٦) فى ب، جـ: العمر.

1 سيدان: جمع سيد وهو الذئب.

2 الدو: الفلاة الواسعة.

3 خبت: الخبت من الأرض ما انخفض واتسع.

4 وخذ: يقال وخذ البعير وخذ، إذا اتسع خطوه وأسرع.

5 شقة: هى القطعة المستطيلة من الثوب.

6 منوال: هى خشبة الحائك التى يلف عليها الثوب. وقيل: هو الحائك نفسه.

قامت رجال على آثار همته والناس فى طلب الأرزاق أشكال
فلا تقل قد مضى وقت المكاسب فال أرزاق باقية والمرء محتال
واحرص على كسب ما ينجيك فى غدك الآتى إذ المال عن أهليه ^(٥) ميال
بيننا ترى المرء مسرورا بصحبته والعمر مثل كتيب الرمل منها
الليل ^(٦) يطويه والأيام تنشره كأنه شقة 5 والكون منوال 6
إن قصر الخطو منه خطر ^(١) فله باع يطوله حرص وآمال
لا يستريح ولا يرتاح إن عرضت له البطالة أو فاتته أشغال
ولو تفكر فى الدنيا للآح له منها كما لاح فى قاع الفلا آل 1

قال الراوى: فلم أزل بين تزلزل عيش، وثناقل وطيش، إلى أن رميت جمار جميع
البضائع اليمنية والهندية، وقضيت المنى من منى ثغر الإسكندرية، ثم أسرع
العودة على طريق الصعيد، راجيا لقضاء صاحبى الذى هو بيت القصيد، وهان على
لأجله ^(٢) نكد الأعراب، وتلاطم أمواج بطن حباب. فاتفق الأمر العجاف،
أن لقيته بصحراء عذاب، حاديا ركائبه بدم الاغتراب، وصافحته مصافحة
الأحباب، فوجدته قد استعد قبل السؤال للجواب، بألفاظ عذاب، وجفان
بأدوية ^(٣) الآداب جواب:

قل للذى يسألنى: ما الذى أخرجنى من بعد توريط ؟
من عدن أخرجنى حرها المنتج أدواء النفايط 2
وقلة الخضرة مع ما بيا ب البر من خوف وتحيط ^(٤)
وماؤها المحفوف فى الشعب لا يملك إلا بالقراريط

(١) فى الأصل: خطه.

(٢) فى الأصل: لأهله.

(٣) فى ب: بأردية. وفى ج: بأودية.

(٤) هذا البيت والذى يليه لم يردا فى الأصل.

والخبز غالى السعر فى سائر الأوقات مأكول بتسخيط^(٥)
وزرعها^(٦) فى البحر فاعجب لمن يرجو التمنى من غير تحويط
وليس فيها نزهة تزدهى الله نفس سوى ظل السوايط1
وكل من يمرض فيها فما دواء غير المشاريط
والكرسى إن حرك كؤوساته سلط فيها أى تسليط
وغير الجو بترب من الد كيما والآنحاس مخلوط
وماؤها الملح له لذعة تدمى مخاصى كل مسموط2
قد جعل الآس درورا له كنائم فى المهد مغموط
تراه كالمختون إن راح أو غدا عجولا أو كقيليط3
وإن مشى فى السوق صبت عليه ه سحب أو ساخ بتمليط
وإن تعرى طاب^(٢) نفسا ولا يرغب فى ملبوس مخيوط
وقل من يسكنها وهو ذو وجه لفعل الخير مبسوط
لكن لجمع المال مستحسن من غير تبذير وتفريط
يعوذ الدرهم إن جاءه خوفا عليه بالشرايط^(٣)
تجمعوا فيها صعيدى وذا (ك مقبل)^(٤) من بحر ديروط

(٥) فى الأصل: بتسخيط.

(٦) فى الأصل: زرعها.

1 آل: أى سراب.

2 النفايط: جمع نطفان وهو مرض شبيه بالسعال.

(١) فى الأصل: قطب.

(٢) فى ب: بالترابط.

(٣) ليست فى الأصل.

وذا من الغرب وذا من بلا د الشرق والآخر زهوط^(١)
 وكلما قيل أتى مركب تناوبوا^(٢) من غير تثييط
 كل يرى الساحل رأيا صوا با وهو راج بعد^(٣) تقنييط
 يمسح في لحيته مفكرا من غير تسريح وتمشييط
 بكفه مروحة قد حكت هيئتها^(٤) طير الوطاويط
 بالقذف في غفلته ساهيا بها كما يقذف في^(٥) شيط
 حتى إذا صافح من جاء في الد مركب من حر وملعوط^(٦)
 وألقيت في يده رقعة من بعد وصل ذات تخطييط
 وظل في أسطرها ناظرا ما بين مصلوح ومكشوط
 يعرب عن معجم ما جاءه من كل محلول ومربوط
 فإن رأى الأرض بها وافرا من طبق باللاك مخروط
 أبدى سرورا ومشى معجبا وقال قد أوفى بمشروط
 حتى إذا أنزل ما جاءه بهن تبقييط 1 وتشحييط^(٧)

(٤) في ب: دهوط.

(٥) في ب، ج: تثاوبوا.

1 السواييط: جمع سباط وهي سقيفة بين حائطين تحتها ممر نافذ.

2 مسموط: هو الصياد، وسمى كذلك للزومه لمكان الصيد كلزوم السمط - وهي القلادة - للعتق.

3 كقيليط: القيليط: الأدر المنتفخ الخصية.

(١) ليست في الأصل.

(٢) في ب: هيقتها.

(٣) في الأصل: لى.

(٤) في ب: ملقوط. والملعوط: هو الحبشى الذى يخط في وجهه خطوطا.

(٧) في ب: وشخييط. وفي ج: وتسخييط. وفي البيت إقواء.

وصار فى الفرضة فى جانب لزحمة الأوباش مضغوط^(١)
 وراز كى يحتاز مستقبلا لضرب مرك كالخوابيط
 يخط فى أكتاف غلمانة ما بين مسكوك ومنقوط
 قواعد قد أسسوها فما يخرج شىء غير مضبوط
 فقل لمن يسكنها راضيا يؤت بعيش غير مغبوط
 كم فى بلاد الله من مسكن ما بين أسوان ومربوط
 يرتاده العاقل لكنها شقوة^(٢) مغبون ومغلول

ثم إنه (قال بعد أن)^(٣) قصر فى السؤال^(٤) وطول فى الدعاء والابتهاال:

الحمد لله الذى أقال من تلك العثرات الثقالة، وسلم النفس والأهل والمال من هاتيك الأهوال، ورد العقبي والمآل إلى أجمل الأحوال".

وفى المحرم سنة خمس وتسعين وستمئة حدث أمر عجيب، وذلك أن شابا من بعض أهل القرى خرج بثور له يسقيه الماء، فلما فرغ الثور من شربه حمد الله، فتعجب الشاب من ذلك، وحكاه فلم يصدق، ثم خرج به ثانى يوم فشرب الثور وحمد الله بعد فراغه، فكثر ذكر ذلك فى القرية. ثم خرج به ثالث يوم وحضر أهل القرية، فعندما فرغ الثور من شربه سمعه الجميع وهو يحمد الله تعالى، فتقدم إليه بعضهم وسأله، فقال الثور بكلام سمعه من حضر: إن الله عز وجل كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدبا، ولكن بشفاعاة النبى صلى الله عليه وسلم أبدلها الله بالخصب. وذكر أن النبى ﷺ أمره بتبليغ ذلك إلى الناس، وقال الثور: فقلت: يا

(١) الوجه أن تكون مضغوطا لأنها خبر صار.

1 تبقيط: أى تفريق وأخذ القليل فالقليل.

(٢) فى الأصل: مشقوة.

(٣) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٤) فى ب، جـ: المقال .

رسول الله ما علامة صدقي عندهم ؟ قال: أن تموت عقب الإخبار. ثم مضى الثور إلى موضع مرتفع ووقع ميتا، فتقاسم أهل القرية شعره للتبرك به، وكفنوه ودفنوه، وكتب بذلك محضر وثبت على قاضي الناحية، وأحضر إلى السلطان. ذكره المقرئ في تاريخه.

(وفي سنة ست وتسعين وصل النيل إلى أول توت خمس عشرة ذراعا وثمانية عشر أصبعا، ثم نقص ولم يوف، وفي سنة سبع وتسعين أوفى النيل آخر أيام النسيء، وفي سنة تسع وتسعين أوفى في ثالث عشر توت، وفي سنة اثنتين وسبعمئة قال الحافظ البرزالي في تاريخه^(١) قرأت في بعض الكتب الواردة من القاهرة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهرت دابة عظيمة الخلقة من بحر النيل في أرض المنوفية، وصفتها لون الجاموس بلا شعر، وآذانها كأذان الجمل، وعيناها وفرجها مثل الناقة، يغطي فرجها ذنب طوله شبر ونصف، طرفه كذنب السمك، ورقبتها مثل غلظ التيس المحشو تبنا، وفمها وشفاتها مثل الكربال، ولها أربعة أنياب، اثنان من فوق واثنان من أسفل، طولها طول الشبر وعرض أصبعين، وفي فمها ثمانية وأربعون ضرسا وسنا مثل بيادق الشطرنج، وطول يديها من إبطها إلى الأرض شبران ونصف، ومن ركبته إلى حافرها مثل بطن الثعبان، أصفر مجمد، ودور حافرها مثل السكرجة 1، بأربعة أظافر مثل أظافر الجمل، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما، وفي بطنها ثلاثة كروش، ولحمها أحمر، وزفرتها مثل السمك، وطعمه كلحم الجمل، وغلظ جلدها أربع أصابع ما تعمل فيه السيوف، وحمل جلدها على خمسة أجمال في مدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل، وأحضروه إلى القلعة بين يدي السلطان، وحشوه تبنا وأقاموه بين يديه. انتهى.

(١) ما بين القوسين ليس في الأصل.

1 السكرجة: إناء صغير يوضع فيه الطعام القليل.

وفي هذه السنة أبطل الأمين ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى تولى السلطنة بعد ذلك - وهو صاحب الخانقاه البيبرسية - عيد الشهيد الذى كان يعمل بمصر، وذلك أن النصارى كان عندهم تابوت فيه أصبع يزعمون أنه من أصابع شهدائهم، وأن النيل لا يزيد ما لم يلقى فيه هذا التابوت، وكان يجتمع النصارى من سائر النواحي إلى شبرا، ويلقى هذا التابوت فى النيل فى ثامن بشنس، ويقع هناك أمور فظيعة من سكر وغيره؛ فأبطل لذلك إلى يومنا هذا، والله الحمد.

وفى سنة أربع وسبعمائة أوفى النيل رابع توت، وكان فى سنة خمس، وفى سنة تسع وسبعمائة توقف النيل واستسقى الناس فلم يسقوا، وانتهت زيادته فى السابع والعشرين من توت إلى خمسة عشر ذراعا وسبعة عشر أصبعا، ثم نقص ثم زاد وأوفى ستة عشر ذراعا فى تاسع بابه، وتشاءم الناس بسلطنة المظفر ركن الدين بيبرس، وغنت العامة فى ذلك:

سلطاننا ركين 1، ونائبنا دقين 2، يجينا الماء من أين، يجيئوا لنا الأعرج 3، حتى^(١) يجي الماء ويدحرج.

وقال الأديب شهاب الدين أحمد بن عبدالدايم الشارمساحى يذكر ذلك لما خلع بيبرس وأعيد الملك الناصر:

ولى المظفر لما فاته الظفر وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا كادت على عصبة الإسلام تنتشر^(٢)

(١) ليست فى الأصل.

(٢) فى ب: تنتصر.

(٣) فى ب، ج: الله.

(٤) فى الأصل، ب: وأما.

1 ركين: المراد به السلطان ركن الدين بيبرس.

2 دقين: المراد به الأمير سلالر النائب.

3 الأعرج: هو الناصر محمد بن قلاوون، وكان برجله عرج.

وقل لبيرس: إن الدهر^(٣) ألبسه أثواب عارية فى طولها قصر
إذا تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمن لا النيل أوفى ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته وابن المرحل قل لى كيف ينتصر؟

قال المقرئى: اتفق فى هذه السنة أمر غريب قل ما عهد مثله، وهو موت سلطان
مصر الملك المظفر بيبرس، وإمام^(٤) الشافعية بها الشيخ نجم الدين بن الرفعة،
وقاضيه وإمام الحنفية فى عصره قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم
السروجى شارح الهداية، ومفسرها الإمام عز الدين عبدالعزيز بن عبد الجليل
النمراوى، والمتكلم على القلوب بها الشيخ تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن
عطاء الله صاحب الكلام الرائق الفائق، وشيخ الشيوخ بها كريم الدين كريم بن
عبد الكريم بن الحسين بن أبى بكر الأملى الطبرى شيخ خانقاه سعيد السعداء،
وواعظها نجم الدين بن العنبرى، ومحتسبها القاضى بدر الدين حسن بن نصر
الأسعدى المحتسب، وناظر جيوشها القاضى بهاء الدين عبد الله بن أحمد الحلبي،
وأديبها شمس الدين محمد بن دانيال الموصلى مصنف كتاب « طيف الخيال ».

وقال الشهاب الحجازى: وجد فى رسالة فى وصف النيل: كتب الشيخ نور
الدين على سبط الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض إلى القاضى معين الدين بن
حشيش وهو يومئذ بالشام:

المملوك نهى أنه كان فى سنة تسع وسبعمائة لما كان مولانا السلطان الملك الناصر
بالكر، غضب النيل على أهل مصر لغضبه، ففعل بهم وترك ما ترك، تذكر كتاب
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى نيل مصر عند توقفه فى زمانه، وهو
كتاب مبارك تشرف النيل بعنوانه، وافتخر بخطاب ابن الخطاب له، وقبله وقبله
وجرى ببركته المدائن والقري، ولم يتقبل منهم بعد ذلك قربانا ولا قرى، فطاف
المملوك بمغناه ونظم معناه، وقال:

يا أيها النيل المبارك إن تكن
أو إن تكن من عند نفسك تأتينا
كم من بلاد لست تعرف أرضها
يا ذا الوفاء أراك جئت بلادنا
إن كان دفؤك لا يجيء تأدبا
فإذا الصليبي اللعين بجهله
مسرى سرى والنيل أصبح واقفا^(١)
فمضى النسيء وليس فيه زيادة
أهون به وبشهره ونسيئه
نحن الذين لنا بجاه محمد
ما يرتجيه غنينا بغناؤه
ندعو ونستسقى الغمام بوجهه
يا رب خير العالمين محمد
يا رب أجر لنا توقف نيلنا
يا بر إن البر أصبح غاليا
وارحم بفضلك ركعا أو ضرعا^(٢)
وأغث عبادك فى بلادك بالوفا
وأضف إلى تعليقه تعليقه
وأفض على السد المبارك ماءه

من عند ربك تجر فاجر بأمره
فالله ييسط بره فى بره
ملأ الإله بيوتها من بره
والحر لم يشن الوفاء بغدره
إلا بإذن مليكه فبعذره
والكفر يركض فى جوانب صدره
قد فاتنا تغليقه فى شهره
إن النسيء زيادة فى كفره
وشهيد شبراه وطينة بثره
عند الإله بحمده وبشكره
وفقيرنا (فى الالتذاذ)^(٢) بفقره
فبذاك أخبر عمه فى شعره
بجمال سائره الشريف وسره
وأدم مسرة نيلنا من بحره
فارخص بحقك ما غلا من سعره
أو رتعا فى ذا الوجود بأسره
واسبل على المقياس خلعة ستره
حتى نرى تعليقه فى مصره
واكسره رب فجبنا فى كسره

(١) فى جـ: واقعا.

(٢) فى الأصل: بالمال زاد.

(٢) فى ب، جـ: رضعاً.

وابعث لنا بعد الوفاء زيادة يحيى بها ميت الثرى من قبره
فقد استجرنا بالنبي محمد ويوم مولده الشريف وشهره

وكتب المملوك بهذه الأبيات العربية، وجعلها في باطن قصبة فارسية، وألقاها في
البحر عند المقياس، على ذلك القياس، فتفجر الماء من منابعه، وأشار إلى الوفا
بأصابعه، واستمرت الزيادة، قبل الوفاء وبعده على العادة، حتى انتهى إلى حده^(١)،
وجبر الله تعالى القلوب بكسر سده، وعمر الأرض ببركات عمر، وعمر آجال
الأعمار^(٢) وعمر، وأقبل أمين الماء يهلل ويلبى، ويقول: هذا رحمة من ربي. وانحط
السعر الغالى، وتواضع قدره العالى، وذهب الباس والياس، وذلك من فضل الله
علينا وعلى الناس.

وفي ثلاثة عشر وسبعمائة أوفى النيل آخر أيام النسيء، وفي سنة سبع عشرة أوفى
تاسع عشرى أبيب وعلق الستر، فنقص من ليلته ثلاثة أصابع، فكسر الخليج ثانى
يوم مع النقص، ثم زاد زيادة عظيمة. وفي سنة تسع وثلاثين انتهت الزيادة إلى ستة
عشر ذراعا وعشر أصابع، فلم ترو الأراضى كلها، وغلت الأسعار.

وفي سنة أربعين وسبعمائة توقف النيل توقفا زائدا، فاجتمع الناس ليلة السابع
والعشرين من المحرم بجامع مصر والقاهرة للدعاء بزيادته، ودعوا على النشو ناظر
الخاص طول ليلتهم، وكانوا جموعا كثيرة إلى الغاية، فلما كان يوم الاثنين ثانى صفر
زاد ست أصابع، وقبض في هذا اليوم على النشو، وأفرج عن الصاحب شمس
الدين موسى بن التاج إسحاق وأخيه، فقال في ذلك علاء الدين على بن فضل الله
كاتب السر:

(١) في الأصل: حره. وفي ب: جده.

(٢) في ب، ج: الأعمال.

١ هو أبو عبد الله شمس الدين، محمد بن حسن بن سباع بن أبي بكر الجذامي، المعروف بابن الصائغ،
أديب، عالم بالعربية، مصرى الأصل، دمشقى المولد والوفاة. كان له حانوت بالصاغة. توفي سنة
٧٢٠ هـ.

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر نادى البشير إلى أن أسمع الفلکا
يا أهل مصر نجا موسى ونيلکم طغى وفرعون وهو النشو قد هلکا

وقال الشيخ شمس الدين بن الصايغ¹:

لقد ظهرت فى يوم الاثنين آية أزالـت بنـعـماها عن العالم البوسا
تزايد بحر النيل فيه وأغرقت به آل فرعون وفيه نجا موسى

وقال الكمال جعفر الإدڤوى²:

إن يوم الاثنين يوم سعيد فيه لا شك للبرية عيد
أخذ الله فيه فرعون جهرا وغدا النيل فى رياه يزيد

وبلغ النيل فى هذه السنة سبعة عشر ذراعا وتسع عشرة أصبعا. وفى سنة أربع
وأربعين بلغ النيل عشرين ذراعا وخمس عشرة أصبعا. وفى سنة سبع وأربعين قل
ماء النيل حتى صار ما بين المقياس ومصر يخاض، وصار من بولاق إلى منشأة
الهرانى، ومن جزيرة الفيل إلى بولاق، ومنها إلى المنية^(١) طريقا واحدا، وبعد على
السقاين موضع الماء، وبلغت الراوية الماء إلى درهين فضة بعد أن كانت بربع
درهم. فبلغ السلطان الملك الكامل شعبان غلاء الماء بالمدينة وانكشف ما تحت
بيوت البحر من الماء، فركب ومعه الأمراء وكثير من أرباب الهندسة، حتى كشف
ذلك فوجد الوقت فيه قد فات بزيادة ماء النيل، واقتضى الرأى أن ينقل التراب
والشقف 2 من مطابخ السكر بمدينة مصر، وترمى من بر الجزيرة إلى المقياس، حتى

(١) فى ب: المفية . وفى ج: المدينة.

1 هو أبو الفضل كمال الدين، جعفر بن تغلب بن جعفر الإدڤوى: مؤرخ، له علم بالأدب والفقه
والفرائض والموسيقى، ولد فى إدڤو وتعلم بقوص والقاهرة، وهو صاحب كتاب (الطالع السعيد
الجامع لأسماء نجباء الصعيد). توفى بالقاهرة سنة ٧٤٨ هـ.

2 الشقف: الخزف أو المكسور منه. والمفرد: شقفة.

يصير جسرا يعمل عليه ويدفع الماء إلى الجهة التى انحسر عنها، فنقلت الأتربة وألقيت هناك إلى أن بقى جسرا ظاهرا، وتراجع الماء قليلا إلى بر مصر، فلما قربت الزيادة علا الماء على هذا الجسر.

وقال المقرئى فى حوادث سنة تسع وأربعين: كان ماء النيل قد نشف فيما بين بر مدينة مصر والروضة، فصار فى أيام احتراق الماء رمالا. فوقع الاتفاق على عمل جسر، وقام منجك على عمله، فضرب له خاما بالروضة، واجتمع للعمل خلائق، وعمل جسر من الجيزة إلى المقياس وآخر من الروضة إلى الجزيرة الوسطى، فأقاموا فى عمله أربعة أشهر، وكان طول جسر الروضة مائتى قصبة فى عرض ثمانى قصبات وارتفاع أربع قصبات، وطول جسر المقياس مائتين وثلاثين قصبة، وعدة ما رمى فيه من المراكب الحجر اثنا عشر ألف مركب سوى التراب والطين، وغرم عليه ما لا يمكن حصره، وجبى ذلك من كل من فى البلدين^(١)، من القاهرة ومصر.

وفى سنة إحدى وخمسين بلغ النيل سبعة عشر ذراعا فقط، وهبط فى خامس توت فشرقت 1 بلاد كثيرة، وتوالت الشراقي 2 ثلاث سنين، فشق الأمر فيها على الناس.

وفى سنة ستين بلغ النيل أربع أصابع من عشرين، وثبت إلى أول هاتور، فخرج الناس ودعوا حتى هبط.

وقال فى ذلك البرهان القيراطى:

فى عام ستين انتهى الدفع^(٢) الذى فى النيل للعشرين فى التحرير وأتت من الجيش المياه فلا تسلك ما قد جرى منها على التكرور وقال نثرا: وأما النيل فإنه زاد فى كره وكثر نيله، وتراكم سيله^(٣)، ولازم

(١) فى الأصل: البلد.

(٢) فى ب، ج: الرفع.

(٣) فى الأصل: ميله. وفى ج: سييله.

المعشوق ملازمة العاشق، وقطع الطريق بكثرة مياهه، وكادت تحصل بارتفاعها إلى الطارق، وشبك بالخمسة أصابع أصابعه، وغار على ما هنالك من الضياع الثلاث والعدوية رابعة، وتوجه إلى مصر فعم جهاتها وما خصص، وأقام بدار النحاس ورصص.

وقال أيضا في رسالة:

وأما النيل فقد عقدت خيامه على أوتار الجبال الطنب، وغسل بمائه الجار الجنب، وأذاق الشجر الأخضر من محمر^(١) مائه الموت الأحمر.

وفي سنة إحدى وستين قال المقرئ: كان النيل مما يتعجب منه، فإنه جاء القاع نحو اثنتي عشرة ذراعا، وأوفى سادس مسرى، وبلغ تسع أصابع من عشرين ذراعا، ثم بطل النداء عليه فبلغ نحو أربع وعشرين ذراعا، وخرب عدة مساكن، وثبت إلى خامس باب، فخرج الناس من الغد ودعوا الله فهبط من يومه أربع أصابع، وعمل في ذلك الأديب شهاب الدين بن أبي حجلة كتابا يسمى (السجع الجليل فيما جرى من النيل) قال فيه:

وأما البحر الذي بنى عليه عنوان هذه العبودية، فلا تسأل ما جرى منه، وما نقلت الوراق من العجائب عنه، والذي^(٢) أنه عم قدومه بنفع البلاد، وساوى بين بطون الأودية وظهور الوهاد، وقدم المفرد مبشرا بوفائه في جمع لا نظير له في الأحاد، واحمر على من طلب الغلاء عيونه، وتكفل للمعسر بأن توفي بعد وفائه ديونه، ونزل السعر حين أخذ منه طالع الارتفاع، وأحرق بالقرى فأصبح كأنه سماوات كواكبها الضياع، فلم يكن بعد ذلك إلا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى

1 فشرقت: أى جفت من عدم الرى. فهى شرقة.

2 الشراقى في كلام أهل مصر: الأرض التى لم يصلها ماء النيل.

(١) في ب: محو.

(٢) كذا بالنسخ الخطية، ولعله سبق قلم، والوجه أن تكون: وذلك.

عسل 1 في شوارع مصر كما عسل 1 الطريق الثعلب، وجاس خلال ديارها فأصبح على زرايها المبوثة بسطة، وأحاط بمركز المقياس إحاطة الدائرة بالنقطة ^(١)، ثم علت أمواجه، واشتد اضطرابه، وكاد يمتزج بنهر المجرة الذي الغمام زبده، والنجوم حبابه.

(وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب)

أما دير الطين ^(٢) فقد لبس سقوف حيطانه، واقتلع أشجار غيطانه، وأتى على ما فيه من حاصل وغلة، وتركه ملقة 1 فكان كما قيل: زاد الطين بلة.

وأما الجيزة فقد طغى الماء على قناطرها الخمس وتحسر، ووقع فيها القصب من قامته حين علا عليه الماء وتكسر، فأصبح بعد اخضرار بزته شاحب الإهاب، فاصل الخضاب، غارقا في قعر ^(٣) بحر لجى ^(٤) ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ 2، وقطع طريق زاويتها على من فيها من المنقطعين والفقراء، وترك الطالح كالصالح يمشى على الماء، ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ 3، ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ 4، وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص، وغشيه من اليم ما غشيه ﴿فَنَادَوْا وَلَا تَحِينَ مَوَاصِيَ﴾ 5، وخر عليهم السقف من فوقهم فانهدمت قواهم، واستغاثوا ^(٥) من كثرة الماء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

(١) في الأصل: بالمنطقة.

1 عسل: مضى مسرعا. والمعنى مأخوذ من قول ساعدة بن جؤية:

لذن بهز الكف يعسل مته فيه كما عسل الطريق الثعلب

(٢) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٣) ليست في ب.

(٤) في الأصل، ب: طى.

(٥) إثبات الواو هنا على لغة من يقول أكلونى البراغيث. أو تكون الباء سقطت من قوله: الذين، أى: بالذين.

1 ملقة: ملساء.

وأما الروضة فقد أحاط بها إحاطة الكمام بزهره، والكأس بحباب خمره.

فكانها فيه بساط أخضر وكأنه فيها طراز مذهب

فكم بها من متهم ومنجد، ومسافر مما حصل له من المقيم المقعد، وحائك أصبح حول نوله ينير، وجعل من غزله بل من غيظه على أجيره يحمل ويسير، ومنجم وصل الماء من منزله إلى العتبة الخارجة فأصبح في أحسن تقويم، ودخل إلى بيت أمراضه ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾¹، فأصبح في الطريق وعليه كآبة وصفرة، ودموعه في المحاجر كالخصى لها اجتماع وحمرة، وشاعر أوقعه في الضرورة بحره المديد، واشتغل بهدم داره عن بيت القصيد، وعروضي^(١) ضاقت عليه الدائرة فقال: هي الفاصلة، وقلع من عروض بيته وتدا أزعج بقلعه مفاصله، ونحوى اشتغل عن زيد وعمر و ببل كتبه، وذهل حين استوى الماء والخشبة، عن المفعول معه والمفعول به، وطار عقله لا سيما عن تصانيف ابن عصفور، وأخبر أن البحر وأثاث بيته جار ومجرور.

وأما الجزيرة الوسطى فقد أفسد جل ثمارها، وأتى على مقائنها فلم يدع شيئاً من رديها وخيارها، وألحق موجودها بالمعدوم، وتلا على التكرورى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾²، وأخلق ديباجة روضها الأنف، وترك قلقاسها بمدّه وجزره على شفا

2 سورة النور، الآية ٤٠.

3 سورة القلم، الآية ٢١.

4 السورة نفسها، الآية ٢٤.

5 سورة ص، الآية ٣.

(١) في الأصل: عرضي.

1 سورة الصافات، الآيتان ٨٨، ٨٩.

2 سورة القلم، الآية ١٦.

3 هي منشأة المهراني.

4 سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

5 سورة يوسف، الآية ٦٣.

جرف.

وأما المنشأة 3 فقد أصبحت للبحر مقرة، بعد أن كانت للعيون قرة، وقيل لمنشيتها: «أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا» 4، فقال: يحييها الذي أنشأها أول مرة، ومال على ما فيها من شون الغلات كل الميل، وتركها تتلو بفمها الذي شقته مصرعا الباب: «يَتَأَبَّانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» 5.

وأما بولاق فقد أصبحت صعيدا زلقا من الملق، وقامت قيامة المار بها حين التفت الساق بالساق من الزلق، فكم اقتلع بها شجرة بشروشها، وترك ساقته^(١) تنوح على أختها التي أصبحت خاوية على عروشها.

وأما الخليج الحاكمى فقد خرج عسكر موجه بعد الكسر على حمية، ومرق من قسى قناطره كالسهم من الرمية، وتواضع حين قبل بحارة زويلة عتبات غرفها العالية^(٢)، وترك السقاين في حالة يعجز عن وصفها صريع الدلاء 1 وحماد الراوية 2، فأصبحوا من الكساد وقد سئمو الإقامة، قائلين في شوارع مصر: يا الله السلامة.

وقال ابن أبي حجلة في سنة ستين^(٣) وسبعمئة وقد زاد النيل حتى غرق البلاد ووقع الوباء:

عم الوباء لأن الناس قد باءوا وزاد طغيانهم لما طغى الماء

(١) في ب: ساقية. وفي ج: سواقية.

(٢) في ج: الغالية.

(٣) في الأصل، ب: اثنتين. وهو خطأ، فإن ابن أبي حجلة ولد سنة ٧٢٥ هـ.

1 صريع الدلاء: هو أبو الحسن محمد بن عبد الواحد البصرى، نزيل بغداد، شاعر صاحب مزاح ولعب، له ديوان مشهور، تحول إلى مصر ومات بها سنة ٤١٢ هـ.

2 حماد الراوية: هو أبو القاسم حماد بن سابور بن مبارك الشيباني مولاهم، راوية الشعر والنسب والأخبار، كان أحد الأذكياء، توفي سنة ١٥٦ هـ.

باءوا يائثم وتاب الآن طائعهم
 تالله ما راعهم من موت أكبرهم
 يا واسع الجود رفقا بالعباد فقد
 يا رب إن الوبا حمت ركائبه
 مستهم منه صفرا لا مساس لها
 أمسى الطبيب مريضا كالمريض بها
 تغير الريح في مصر فساكنها
 هذا على قول قوم لا عقول لهم
 وقائل: هذه سوداء محرقة
 وقائل: إن ماء النيل حين علا
 هيات قل للذى يهدى بحكمته
 هذى أمور عجزنا عن مداركها
 أين ابن سينا رئيس الطب مات وما
 أين الفلاسفة الماضون قبل ومن
 أين الأئمة في علم وفي أدب
 أين الذى جمل الدنيا برؤيته
 لهفى على ابن هشام حين مات بكت
 لهفى على فتية ماتوا وكان لهم
 وقال أيضا:

يا رب إن النيل زاد زيادة حلت عرى بنيان كل محلة

(١) فى ب، جـ: شفياء.

ما ضره لو جا على عاداته فى دفقة ^(١) أو كان يدفع بالتى
وقال أيضا:

أبحر	النيل	لا	تشره	ولا	تأتى	بما	نكره
فقد	وفيت	بالحسنى	ولكن	زدت	فى	كره	
فلا	تكشف	لنا	حالا	فنسأل	ربنا	الستره	
ولا	تترك	قفا	الحبا	ز	يوما	يأكل	الدره
فكم	من	خازن	للقمه	ح	أمسى	يظهر	العذره
ألم	تعلم	بأنك	إن	نزلت	تركته	عره	
فشهر	دمعه	حتى	تراه	فى	الورى	شهره	
وسر	عن	مصر	فى	خير	فقد	طولت	فى العشره

وفى سنة أربع وستين وسبعمائة توقف النيل، ثم أوفى ثالث توت وبلغ أربعة أصابع من ثمانية عشر ذراعا، ثم انهبط فوق الغلاء، وقال فى ذلك البرهان القيراطى:

النيل ذا العام ما عم البلاد ولا مشى على العدد المعهود فى المدد
يا واصف النقص منه ^(٢) والزيادة لى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

وفى سنة ثلاث وسبعين كثرت زيادة النيل بحيث زاد على العشرين، وثبت فى أيام من هاتور، فاجتمع الناس بجامع عمرو والجامع الأزهر ودعوا الله لهبوط النيل عدة مرار حتى هبط، وعمل فيه الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن أبى حجلة التلمسانى مقامته المشهورة المسماة بالزعفرانية، وستأتى قريبا.

(١) فى ب، جـ: دفقة.

(٢) ليست فى ب، جـ.

وقال فيه شهاب الدين العطار 1 مقاطيع. وفي سنة خمس وسبعين وسبعائة توقف النيل عن الزيادة بحيث جاء النوروز ولم يوف، حتى قال بدر الدين بن الصاحب:

نيروز مصر بلا وفاء يعد صفعا ^(١) بغير ماء

وقال أيضا:

متابع	تقاصر	عنا	النيل	تقاصر
الأصابع	بمص	منه	اضطارا	قنعنا

وخرج القضاة والفقهاء وغيرهم إلى جامع عمرو (وجامع الأزهر) ^(٢) وتضرعوا، وكسر الخليج وقد بقي من الوفاء خمس أصابع، فهبط الماء من يومه ولم يعد، فخرج القضاة والناس ثانيا إلى المقياس وقرأوا هناك القرآن، وتضرعوا إلى الله تعالى في إجراء النيل، فرد ما نقص، ثم عاد فنزل حتى جفت الخليجان، فنودي في الناس بصوم ثلاثة أيام والإقلاع عن المعاصي والتوبة، فصاموا ^(٣) وخرجوا وهم مشاة حفاة إلى قبة النصر 1 ومعهم الأطفال، فصلوا صلاة الاستسقاء، وضجوا بالدعاء، ولم يسقوا، ووقع الغلاء.

قال البدر البشتكي: وقلت في نيل سنة خمس وسبعين وسبعائة:

يا أهل مصر نيلكم متكرر من بعد صفو بالوفا لم يسعف
عهدي به يبدى التملق ما له ترك التملق ثم خان ولم يف

(١) في الأصل، ب: صعفا.

1 هو شهاب الدين، أحمد بن محمد بن علي، ابن العطار، الدنيسري، أديب، أصله من « دنيسر » له نظم كثير، وكان يمدح الأكابر وينظم في الوقائع. توفي في القاهرة سنة ٧٩٤ هـ.

(٢) ما بين القوسين مثبت من ب.

(٣) ليست في ج.

1 قبة النصر: كانت زاوية للصوفية تقع بالقرب من خانقاه برقوق.

قال: وقلت فى المعنى:

خان الذى قدما وفيت عهوده وصفا عليه ما ملكت وما صفا
وتغيرت حالات مصر بعده والله حتى النيل قد ترك الوفا

قال: وقلت فيه أيضا:

عائبت هذا النيل فى ترك الوفا فأجابنى حالا بغير توقف
سأفى وإن خانوا وأصلح منهم ما كنت أفسده ومثلنى من يفى

قال وقد قيل إنه أوفى:

النيل قد وافى بحمد إلها وجرى على العادات بعد توقف
وغدا يقول لأهل مصر وغيرهم من ذا يفى فى مصر إذ^(١) أنا لم أف

وفى سنة أربع وثمانين شرع الأمير جركس الخليل فى عمل جسر بين الروضة
والجزيرة الوسطى فى طول ثلاثمائة قصبة وعرض عشر قصبات، وعمل فيه لنفسه
ومماليكه، وحفر فى وسط مجرى النيل خليجا ليعود الماء إلى بر مصر ويستمر طول
السنة، وأنفق عليه جملة من غير أن يكلف أحدا فيه شيئا.

وقال فيه أدباء العصر شعرا كثيرا، من ذلك قول ابن العطار:

شكت النيل أرضه للخليلى فأحضره
ورأى الماء هايبا أن يطأها فجسره

وقال أيضا:

راعى الخليلى قلب الماء حين طغى بنى على قلبه جسرا وخيره
رأى ترمل أرضيه وحدتها والنيل قد خاف يغشاها فجسره

وقال عيسى بن حجاج:

(١) فى ب: إن.

جسر الخليلى المقر لقد رسا كالطود وسط النيل كيف يزيد
فإذا سألتهم عنهما قلنا لكم ذا ثابت دهرًا وذاك يزيد

قال حافظ العصر أبو الفضل بن حجر في (إنباء الغمر): ولم يفد هذا الجسر شيئًا بل انطرد النيل عن بر مصر ونشف إلى قرب المقياس، ثم بعد عشرين سنة حفر النيل لنفسه بغير سعى أحد وصار يلبث^(١).

وقال البدر بن الصاحب لما انكشف الماء عن الأرض التى بين الفسطاط والروضة:

كانت	بمصر	ميزة	بنيلها	وقد	خلت
كأنه	بعل	لها	من	بعده	ترملت

وفي هذه السنة عمل الأمير جركس طاحونا في مركب عند بسطة المقياس يديرها الماء برسم طحن القمح دقيقا، فأتى الناس لرؤيتها من كل جانب. قال الحافظ ابن حجر: واستأجرها منه بعض الطحانين فحصل منها مالا عظيما أكثره ممن كان^(٢) يأتى إليه برسم الفرجة.

قال المقرئى: وقال فيها أدباء الزمان شعرا كثيرا.

وفي هذه السنة قال المقرئى: انتهت زيادة النيل إلى ثلاث أصابع من واحد وعشرين ذراعا، فعد ذلك طوفانا، وكتب الصاحب فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن مكناس إلى البدر البشتكى رسالة في ذلك:

رب اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين، وسلام على نوح^(٣) في العالمين، ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء، وما قعوده^(٤) عن رزقه هذا النيل الذى

(١) فى الأصل: عبث. والتصحيح من إنباء الغمر (١/٢٥٣).

(٢) مثبتة من ب، ج. وهو الموافق لما فى إنباء الغمر (١/٢٥٤).

(٣) ليست فى ج.

(٤) فى ب، ج: قعاده.

النيل الذى جعل فيه البرية كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسما، وكيف لم ير هذا الطوفان الذى استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظما، فهى كزيادة الأصابع الدالة فى الكف على نقصه، وأولى أن ينشد بيت المثل بنصه:

طفح السرور على حتى إننى ^(١) من عظم ما قد سرنى أبكاني

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل وامتزج، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى حدث عن البحر ولا حرج، وتجاوز فى عشر الثلاثين الحد، وأرانا بالمعينة فى كل ساحل ما سمعناه عن الجزر والمد، وأساء فى دفعه فلم يدفع بالتى هى أحسن، وأقعد الماشى عن التسبب والحركة حتى شكا إلى الله فى الحالين جور الزمن، وسقى الناس فى حياته المعهودة فما شربوا من الموت أصعب كأس.

وسئل ابن أبى الرداد عن قياس الزيادة فقال: زاد بلا قياس، ملأ الباب 1، وهال العباب، وضاع العد واختلط الحساب، كال فطفف، وزار فما خفف، غسل الجسور، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور، وبدع فكان أولى بقول الحلى ^(٢) بن منصور ^(٣):

بمكارم تذر السباب أبحرا وعزائم تذر البحار سبابا

جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل حدبة ^(٤) ذات ألواح. وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم، وأضحت هضبات الموج فى سماء البحر وكأنها هى قطع الغيم، واستحالت الأفلاك وكل برج مائى، وتغيرت الألوان وكل ما فى الأرض سمائى، وحكى ماؤه

(١) فى ب، ج: إنه.

(٢) زاد بعدها فى الأصل: من.

(٣) فى ب: عصفور.

(٤) فى الأصل: جذبة.

وحكى ماؤه حكاكة ^(١) الصندل لما مسه شيطان الريح الأهوج فتخبط، وزاد فاستحال نفعه ليحقق ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط، ولقد حكّت أمواجه ودوائره الأعكان 2 والسرر، وغدا كل حى ميتا من زيادته لا كما قال المعرى:

حيا من بنى مطر وتحالى إلى أن أقرف ^(٢) الليمون الأخضر

واحمرت عيناه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر، وقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد، وأصبح كل جدول منه جعفر ويزيد، فلست ترى إلا إفاضة شاخص إليه بعين أو مشير إليه بأصبع، فلكم قال الهرم للسائرين: يا سارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للحوض ^(٣):

أنا الغريق فما خوفى من البلل

وقال المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون: لم ينقل لهذه الزيادة من عهد النهروان وإلى هذا الدهر، وكيف يسوغ لمولانا فى مثل هذه الأيام غير ارتشاف فم الخور؟ ولم لا يغير مذهبه ويطيب على هذا الخليج بالتسلسل والدور؟ وكيف ولم لا يتخذ مولانا حر النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف؟ وهو فى المبادرة إلى علو المعالى وعلى المعانى، وانتهاز الفرص فى بلوغ الآمال وبلوغ الأمنى.

عجب من أعجاب البحر والبر ونوع مفرد وشكل غريب

(١) فى الأصل: حكاكة.

(٢) فى ب: أفرق. وفى ج: أقرق، ويلاحظ أن شطرى البيت مختلفان وزنا.

1 اليباب: الخراب. يقال: حوض يباب، أى: لا ماء فيه.

2 الأعكان: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا. والواحدة عكنة.

(٣) فى ب، ج: للحوض.

نعم من قاسكم بسواكم قاس البحار إلى الثمار، أعلى الأنام في العلوم قدرا، وإمام
النحاة من عهد سيبويه وهلم جرا، وشيخ العروضيين على الحقيقة برا وبحرا،
وشيخ سيحون والنيل والفرات ودجلة وشيخ جيحون أيضا، وشيخ نهر الأبله، أى
والله:

أقولها لو بلغت ما عسى والطبل لا تضرب تحت الكسا

لا نخبا لعطر بعد عروس، أنت والله أعوم في بحور الشعر من ابن قادوس،
وأصلح إذا حدثت^(١)، من صالح بن عبد القدوس، وأشهى إذا هزلت من ابن
حجاج إلى النفوس:

ولو أن بحر النيل جارك مازحا وحقك^(٢) ما استحلى له الناس زائدا

نعود إلى ما كنا فيه من وصف النيل، وذكر حاله الذى أصبح كما قال ابن
عبد الظاهر كوجه^(٣) جميل، فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال
الديار، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور^(٤) لم ير منه غير الآثار، لبكى
بعينى عروء، وأوى من الرصد وقد تفجرت منه عين النزر إلى ربوة، ولرثى لروض
الجزيرة وقد خلع حلاه، وتخلخلت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه، والنخيل
وقد قتلت بلاها حين قتلت بالأسف، رجف أحمر ثمرها وأصفره فأرانا العناب 1
والحشف 2.

والجيزة وقد قلت لها: تبا لجارك النيل إذ أفسدك صورة ومعنى، وسكن مغانيك
فسقى ديارك بغير استثنا، وقراها الغربية وقد قلت لها حين أوت إلى أعلى الأرض
هربا من المياه، واعتصمت بالجبل الغربى: لا عاصم اليوم من أمر الله، وكل سفينة

(١) في الأصل: حديث.

(٢) في ج: ومحقق.

(٣) في الأصل: كوجد.

(٤) ليست في ج.

وقد علت على وجه الماء، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء، وقد قالت لها أترابها عند الفراق: ألا ترجعى، وقلنا نحن على سبيل التفاؤل: يا سماء أقلعى، والنيل تبدو عليه القلوع خافية لبعدها فكأنها الخيام بذى طلوح³، وجار على الناس بطغيانه فكأنها هو أخو فرعون مصر وابن طوفان نوح، فلقد طار النسر مبلول الجناح، ودنا نهر^(١) المجرة من السكارى بالشخاتير إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح، ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وفارق أحبابه من الرياحين، ولم يبق له غير القلائس^(٢) صديق وغير الماء حميم، والورد وقد قيل له: ما لك من آس، وغصن البان وقد قيل له: طوبى لمن عانقك ولا باس، والأسماك وقد أجمها العرق، والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وأبيه من الغرق، والقصب بالجزيرة وقد شرب ماء النز هو نبيل الشراب، والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب، والفارسي بالبساتين وقد ترجل ووقع فأرانا^(٣) كيف تكسر الأقصاب، وقيل للآس: عالج جيرانك بالغيطان والناس بالناس، وبادر إلى جبر ما كسر فالحاجة تدعو المكسور في الحالين إلى الآس، هذا وأنا مقيم بالروضة إذ زهت على سائر الرياض، وسلم جوهر حصائها من أكثر هذه الأعراض، وإذا اعتلت^(٤) بالاستسقاء فهي عين الصحة كما ينسب السقم إلى العيون المراض، أو كما قال المملوك قديما من قصيدة في بعض الأغراض:

وقائل: فى لحاظ الغيد باقية من السقام وما ضمت حضورهم

(١) فى الأصل: نير.

1 العناب: شجر شائك يشبه السدر.

2 الحشف: أردأ التمر.

3 بذى طلوح: اسم موضع، وهو واد بين الكوفة وفيد. وهو الذى قال فيه جرير:

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

(٢) فى ب: القلاقس. وفى ج: القلائس.

(٣) فى الأصل: قاريا.

(٤) فى الأصل: علقت.

وفى النسيم، فقلت: الأمر مشتبه عليك فالزم فأنت الحاذق الفهم
قلت الصحيح ولكنى بموجه أقول: تلك ذوات ^(١) برؤها السقم
قد أحاط الله بها النيل إحاطة المرافف باللمى ١، وأشرق ضياء بين زرقته فكأنها
البدر فى كبد السما.

بضحى ^(٢) خد لم يغض ماؤه ولم تخضه أعين الناس

متعطش مع ^(٣) هذا الطوفان لرياك ^(٤)، (متشوف وإن كنت منازل النجوم
الأرضية والسماوية يا بدر لرؤياك) ^(٥)، لكن يسلى أنى ما نظرت إلى النيل إلا رأيتك
من سائر الجهات، ولا لمحت بيوت البحر بل البحور إلا رأيتك عمارة الأبيات، ولا
هممت بشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك فى الماء.

ولكن للعيان ^(٦) لطيف معنى له طلب المعاينة الكليم

فلهم ^(٧) إلى التمتع بهذا النيل الذى لم تر مثله العيون، والنظر إلى سائر المخلوقات
لعمومه وكل فى فلك يسبحون، فليس يطيب لهذا التلميذ رؤية هذا البحر بغير رؤية
شيخه، ولا يلذ له التملى برؤية هذا الفلك ما لم يشرق من وجهه وزهرته ^(٨) ببدره
ومريخه، (فما ^(٩) هذا الإهمال) ^(١)، وليت شعرى تشاغللك عنا يا أديب بأى الأعمال،

(١) فى ب، جـ: ذات.

(٢) فى ب، جـ: يضحى.

١ اللمى: سمرة الشفتين. وكانت العرب تستحسنها.

(٣) ليست فى الأصل.

(٤) فى ب، جـ: لرؤياك.

(٥) ما بين القوسين ليس فى ب.

(٦) فى الأصل: للعيون.

(٧) كذا فى النسخ المخطوطة. والوجه أن تكون: فلهم.

(٨) ليست فى الأصل.

(٩) ليست فى الأصل.

يا أديب بأى الأعمال، أبالكتابة؟ فلتكن فى هذا النيل الذى ^(٢) هو كالظلمة بغير مثال، أو بالنثر والنظم ففى هذا البحر الذى منه تؤخذ الدرر وفيه تضرب الأمثال، ولقد قدح ^(٣) فيه الفكر للمملوك، كيف تصادم الأكفار ^(٤) رقيق (المملوك للمملوك) ^(٥) فإنه لم يسمع فى مملكة الإسلام، ولا درج فى عام من الأعوام، بمثل هذه الزيادة الزائدة، والجرى على خرق العادة التى لا جعل الله بها صلة ولا منها عائدة، وغاية ما وصل إليه فى (الماضى شىء من عشرين فضيق لسعته) ^(٦) المسالك، وأوجب المهالك، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع الطريق على السالك، وأحوج مرات ^(٧) إلى الاستصحاء لا أحوج ^(٨) لذلك، ودليل ما شمل به من الفساد، وما عامل به البلاد وأهل البلاد، ما قاله أدباء كل عصر، عندما أبيع للمسافر فى مد عرصة ^(٩) القصر، فمن ذلك ما قاله مولانا القاضى الفاضل:

وما هو رحمه الله إلا بحر طفق دره فله دره، من رسالة ورود رسالته تتضمن بناء سطوره العظيمة أمر طوفان النيل التى كأنها جداوله، وأنه جاد لمؤمله بنفسه التى ليس فى يده غيرها فليقت الله سائله، منها ولم يزل يجرى لمستقر له، ويظهر ^(١٠) شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوله، حتى إذا تكامل سمو أمواجه حالاً على حال، وتنور أقاصى الأراضى من ثنية المقياس فادناها النظر العال، فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره مآق، وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كل

(١) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٢) ليست فى ب، جـ.

(٣) ليست فى الأصل.

(٤) فى جـ: الكفار.

(٥) فى جـ: المملوك للمملوك.

(٦) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٧) فى ب، جـ: مرآة.

(٨) فى الأصل: أعوج.

(٩) فى ب، جـ: عرضه.

(١٠) فى الأصل: ويضم.

غدير ما أطاق، و طالما جرى بالصفاء ولكن كدر صفاء بهذا المسعى، والمرجو من لطف الله تعالى أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصلحه خروج المرعى.

وما قاله القاضي محبى الدين بن عبد الظاهر:

سقى الله ثرى تلك الألفاظ (النيلية صوبه)^(١) الماطر، وينهى إليه أمر النيل الذى سر فى أوائله الأنفس بأنفس بشرى، ويقص عليه نبأه العظيم الذى ما يرينا من آية إلا وهى أكبر من الأخرى، وتصف له ما ساقه إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس صبحها يفرق الليل وتعزى^(٢)، فهو وإن كان خص الله البلاد المصرية بوفاده ووفائه، وأغنى به قطرها عن القطر فلم يحتج إلى مد كافه وفائه^(٣)، ونزهه عن منة الغمام الذى إن جاد فلا بد من شهقة مرعده ودمعة بكائه، فقد وطئ بلادها بعسكره العجاج، وزاحم ساحتها بأفواج الأمواج، فعمل فيها بذراعه ودار عليها بخنادقه وتخللها بتراعه، وحملها على سوارى الصوارى تحت قلاعه وما هى إلا عمد قلاعه، وزار زرابى الدور المبتوثة، وجاس خلال الحنايا كان له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته ولولاه ظهرت فى باطنه من الأقمار والنجوم أشعتها المعكوسة، وحمل على بركة الفيل حمل الأسود على الأبطال، وجعل المجنونة من تياره المنحدر فى السلاسل والأغلال، والمرجو من الله أن يزيل أذاه، ويعيد علينا منه ما عهدناه، فإن له الآيات الكبر، وفيه^(٤) العجائب والعبر، منها وجود الوفا، عند عدم الصفاء، وبلوغ الهرم، إذا اتحد واضطرم، وأمن كل فريق، إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان، إذا كسر وهو كما يقال سلطان، إلى غير ذلك من خصائصه، وبرأته مع الزيادة من نقائصه، طالما فتح أبواب الرحمة بتخليقه، وفاز كل أحد بروية مائه المعصفر بتخليقه.

(١) فى الأصل: المنيلة صومه.

(٢) فى الأصل: وتعزى.

(٣) ليست فى الأصل.

(٤) فى الأصل: وفى.

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدى تغمده الله بعفوه، وجمع له بين تلاوة الكوثر^(١) وصفوه:

وأما النيل فقد أخذ الدار والسكان، وقال ابن الخامل كما قال ابن النبيه: الأمان الأمان، وبكى الناس عندما رأوه مقبلا عليهم بالطوفان، وانسابت أرقام غدرانه فى الإقليم فابتلعت غدرانه أرقامه، ومحا سبيله المتدفق معالمه المجهولة فاستعمل الأقلام فى إثبات معالمه، وأحاط بالقرى كالمحاصر فضرب بينها وبين السماء بسور، وأخذ الطريق على السالكين فلا يركب إلا المراكب ولا عاصم إلا البحور.

وما قاله السديد ابن^(٢) كاتب المرج نصره الأقباط، وأحد عمد الشعر المشهورة بالفسطاط، فما أطيب مدائح النبوة التى جعلها سورا بينه وبين النار، وما أعجب رثاء جعل الله قبره بالرحمة كالروض غب القطار 1:

يا نيل يا ملك الأنهار قد شربت منك البرايا شرابا طيبا وغدا
وقد دخلت القرى تبغى منافعها فعمها بعد فرط النفع منك أذى
فقال: تذكر عنى أننى ملك وتعتدى^(٣) ناسيا^(٤) إن الملوك إذا

ومما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذى أطاعته من الآداب جوامح نثرها، وسخرت له بحور الشعر فقال له الأدب اختر من درها، فسبحان من سخر له ممتنع الكلام وهونه، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فما أشف دقيق فكره الجليل، وما أكثر ما تضحك زهر مقاطيعه على زهر مقطعات النيل، فما كان إلا مخصوصا فى الأدب بجزيل الهبات، وكلامه فى العذوبة والبلاغة يزرى^(٥)

(١) فى الأصل: الكوله.

(٢) فى الأصل: من.

(٣) فى ب: وتفتدى.

(٤) ليست فى جـ.

(٥) فى جـ: يزوى.

بالفرات وابن الفرات، وإن قيل أى أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد فقال: قول ابن نباتة:

فلا عجب للفظى حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات

وأما النيل فقد استوى على الأرض، فثبت فيها قدمه، وامتد فصل تياره^(١) كالسيف الصقيل، فقتل الإقليم^(٢)، وهذا الاحمرار إنما هو دمه:

حمرتها من دماء ما قتلت والدم فى النصل شاهد عجيب^(٣)

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه، ولا واهدا بل جبلا إلا أخفاه، أقبل كالأسد الهصور إذا احتد واضطرم، وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم، وعامل البلاد بالخيلاء، وكيف لا وهو ملك جائر، أيد بالنصر قائلاً: إن كنت بليت بالاحتراق فى أرضكم فأنا أقتص بأن أرمى فى بروق تيارى بشرر كالقصر.

وهذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال جميل، وكل بديع من آثار جوده يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة النيل، وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه به ذات بسطة، وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة، ومتحفه^(٤) بولاء وثناء، هذا يدور مع الإخلاص بفلك، وهذا يضرب من البحار بنقطة، كم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى، وكم أتى مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى، فهو جواد قد خلع الرسن 1، ساهر فى مصالح الخلق وقد ملأ الأعين وأجفانهم بالوسن، جامع لأهل

(٥) فى الأصل: سياره.

(٦) فى ب، ج: المحل.

1 غب القطار: أى بعد المطر. فالقطار هنا جمع قطر وهو المطر.

(١) فى ب، ج: عجب.

(٢) فى الأصل: ومنحفا. وفى ب: ومتحفده.

1 الرسن: الزمام الذى يوضع على أنف الفرس وغيره.

مصر من سقياه ومرعاه ووجهه، بين الماء والخضرة والوجه الحسن، كم بات ستر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين، وكم رفع على الوفاء راية صفراء تسر الناظرين، وبلغ بخير التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامه.

وخلق صدر العمود، وكيف لا يخلق بشير البلاد والعباد، ودعا مصر لأخذ زخرفها، فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد. وبسط يده ببركة الماء فقبل: سلام لك من أصحاب اليمين، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فعقد لمخضوب البنان يمين، وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المخلقة على الماء فوفت وما خانت فروج الأصابع. ونادى زائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى، وتمت أصابع الزيادة ونمت، حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادي.

هذا وقد قربت زرابى الدور المبتوثة بالنهارق، وقال المقياس: تغطت منا الدرج فقال الرجاء وظهرت الدقائق. فهو عم المنافع، عذب المنابع، يشار في الحقيقة والمجاز إليه بالأصابع. فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود، وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن يرد الحوض المورود. وكفى أهل مصر هذه المصيبة التي إذا أصابتهم قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. ولا ابتلاهم بما ابتلى به قوما جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم، فإنما يستغشى ثيابه منهم الفقراء في المطر، ويجعل أصابعه منهم في آذانه المؤذنون.

اللهم إنك ولى النعمة، وأولى برحمة خلقك من فيض هذه الرحمة. وما قاله صاحبنا الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة الذى كان أعرب من زرقاء اليمامة، وأعجب إذا ركب بغلته بزرزوره من أبى دلامة، والأديب الذى كان حجة العرب، والناثر الذى كان بنسبته إلى الطيور محرك المناطق وإلى الشعر صناجة الأدب، والناظم الذى كان إذا أنشد مقاطيعه فى التشبيب فاق على المواويل ذوات الطرب، والصديق الذى كانت منه عوائد الوفاء مألوفة، وشيخ الصوفية الذى لا عجب إذا كانت له المقامات الموصوفة، أسكنه الله فسيح الجنان، وخص ذلك الوجه

الجميل بالعارض الهتان 1.

من مقامته الزعفرانية:

عن أبي الرياش فاعتنقه^(١) لدين الإسلام، وقلت ما وراءك يا عصام، فقد بلغنا أن النيل تزايد دفعه، وأدى إلى الضرر نفعه. فقال: خذ العفو، ولا تكدر بذكر النيل الصفو. فقد امتزج بالمعصرات ثجابه، وأعيا طيبب الغيطان علاجه.

وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

قلت: فما فعل النغير^(٢) بجزيرة الطير؟ قال: لم يبق بها هاتف يبشر بالصياح، ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح. إلا اتخذ نفقا في الأرض أو سلما في السماء، أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء. فأفاق الحمام الحمام في المروج، وترك أرضها كسواء ما لها من فروج، وتلا على الحمام: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ 1، وكم في سماء مائها من نسر واقع، وبومة تصفر على ديارها البلاقع. ومنهل في الغراب ميت، سقيت منه القوم وسقيت.

قلت: فبمصرنا^(٣)؟ قال: زحف عليها بعسكره الجرار، ونفط مائه الطيار.

قلت: فالجيزة؟

قال: طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسر. ووقع بها القصب من قامته حين علا عليه الماء وتكسر. فأصبح بعد اخضرار بزته شاحب الإهاب، ناصل الخضاب، غارقا في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب. وقطع طريق زاويتها

(١) في ب: فاعتنقه. وفي ج: فاعتنقه.

1 الهتان: المطر المتتابع.

(١) في ج: النغير. والنغير: تصغير النغر، وهو فرخ العصفور.

(٢) في ج: فمصر قال.

1 سورة النساء، الآية ٧٨.

على من بها من المنقطعين والفقراء، وترك الطالح كالصالح يمشى على الماء. فتنادوا مصبحين. ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص، وغشيهم من اليم ما غشيهم فنادوا ولات حين مناص. وخر عليهم السقف من فوقهم فهدت قواهم، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

قلت: فالروضة؟

قال: أحاط بها إحاطة الكمام بزهره، والكأس بحباب خمره. فكأنه فيها بساط أخضر. وكأنه فيها طراز مذهب. فلم يكن له فيها بدفع أصابعه يدان، وكم أنشد مرجها حين مرج البحرين يلتقيان.

أعني كفا عن فؤادى فإنه من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

قلت: فدار النحاس؟

قال: أنحس حالها، وأفسد ما عليها وما لها وماءها. فدخل من حمامها الظهر، وقطع الطريق بالجامع الظهر. فألحق مجاز بابيه بالحقيقة، ورقى منه على درجتين فى دقيقة. كم اغترف ما جاوزة^(١) من الغرف غرفا، وأطلق من مائه الأحمر النار بموردة الخلفا.

قلت: فالخليج الحاكى؟

قال: خرج عسكر موجه بعد الكسر على حمية، ومرق من قسى قناطره كالسهم من الرمية.

قلت: فالمنشأة؟

قال: أصبحت للبحر مقرة، بعد أن كانت للعيون قرة. وقيل لمنشيتها، أنى يحيى هذه الله بعد موتها. قال: يحييها الذى أنشأها أول مرة. قد مال على ما فيها من شون الغلال كل الميل، وتركها تتلو بفمها الذى شفته مصرع بابها يا أبانا منع منا الكيل.

قلت: فجزيرة أروى؟

(٢) فى الأصل: جاوره.

قال: قد أفسد جل ثمارها، وأتى على مقائنها، فلم يدع شيئاً من رديها وخيارها،
أخلق ديباجة روضها الأنف، وترك قلقاسها في الجروف على شفا جرف.

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى عن رأسه من شاهق فتكسرا
طلما ^(١) تضرع بأصابعه إلى ربه، ولطم براءوسه الحيطان مما جرى من الماء على
قلبه. (وتمثلوا بقول الأول) ^(٢):

وإن سألوك يوم البى ن عن قلبى وما قاسى
فقل قاسى قاسى وقل قاسى قاسى وقل قاسى قاسى
لم يفده تحصنه من أوراقه بالدرق والستائر، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه
فصح أن السلطان ماء جائر.
قلت: فحكر ابن الأثير؟

قال: لم يبق منه إلا الثلث والثلث كثير. قد أدخل من دوره خمائلها، وجعل أعاليها
أسافلها. فكم دار أعدم صباحها قراره، ونادى في عرصاتها المتداعية: إياك أعنى
واسمعى يا جاره، فأصبحت بعد نفعها قليلة الجدا، مستولية عليها يد الردى،
شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحت في يومها أبكت غدا.
قلت: فبولاق؟

قال: إملاق، قد التفت بها من الزلق الساق بالساق. فأتى منها من النوتية على
الصغير والكبير، ومن المراكب وتمرها ^(٣) على النقيز ^(٤) والقطمير. هذا بعد ترك
جامع الخطيرى 1 على خطر، وحيطانه يانعة الثمر، قد دنا قطافها وحن تلافها،
فكأنى به وقد منع رفده، وتلا على محرابه سورة السجدة.

(١) في ب: والماء. وفي ج: فالماء.

(٢) ما بين القوسين ليس في ب، ج.

(٣) في الأصل: ونموها.

(٤) في ج: الشعير.

1 جامع الخطيرى: أنشأه زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون ناحية بولاق.

قلت: فجزيرة الفيل؟

قال: اقتلع أشجارها بشروشها، وترك سواقيها خاوية على عروشها.

قلت: فالتاج والسبع وجوه؟

قال: هجم على حرمها، وعم الوجوه من فرقها إلى قدمها. قبل ثرى الموتى في التخوم، وعنت الوجوه للحى القيوم.

قلت: فما الحيلة؟

قال: ترك الحيلة.

دعها سماوية تجرى على قدر لا تفسدنها برأى منك أرضى

طال الكتاب، وخرجنا عن فصل الخطاب. ولربما ساق المحرث بعض ما ليس الفدى إليه بالمحتاج. وكأنى بقائل يقول أليس من الكبر أن يستخدم هذا في رسالته ملوك الكلام، ومن الحمق أن يحلى عرائس^(١) أفكاره بما للناس من حلى النثار والنظام؟ فأقول: مسلم إن كل (ما أوردته درر وجواهر، وعقود كزهر الربيع عيون وجوهها النواظر)^(٢) نواضر.

ولكنها ههنا أمثل، وجمع شملها على هذا العروس أجمل، وفي عنق الحسناء مستحسن العقد، وعلى الجملة فيرجع المملوك إلى التواضع وهو الأليق بالأدب. فنقول لا عيب على الفقيرة إذا تجملت بحلى الغنية، ولا عيب على الجوهرى إذا نظم سلكا كانت درره على الطرق مرمية. ونرجع إلى ما ولده الفكر، من عجب البحر، وما ظهر من دفع المملوك لأمثالها عن جريها إذ غاياتها قصور القهر. فأقول: إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض. وكل ذلك وما وصل إلى الارتفاع، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب^(٣) الذارع، وعلى هذا القياس إنما

(١) في الأصل، ب: عن أنس.

(٢) ما بين القوسين ليس في الأصل.

(٣) في الأصل: فقريب.

دفع ضرره^(١)، وحمل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره، وفي الأرض مخبره. السرى الذى اهتمامه بالمعروف معروف، وسيف الدين الذى يسهر فى مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيوف. برقوق أتابك العساكر، والمملك الذى هو بالإسلام مؤيد^(٢) وله منصور وناصر. حصن سائر الكرى بالفسور، وركز على أفواه البحر والخلج الأمراء كما تركز المجاهدون على الثغور. وقابل البحر من سطواته بما لا له به قبل، ورد دفعه بكل دفع من الرأى والتدبير يغنى عن البيض 1 والأسل 2. وحاربه بجيش عزم إلى أن ولى هاربا من التراع والقناطر، وجاهد بجنده الذين ركزهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر، وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراع، وغل يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس ذراعا بذراع. فما هو إلا أن تضاعل نيران سطواته واحترق، وذلل خاضعا وكفى به تضرعا بالأصابع وتوسلا بالملق 3. وأطاع لما لم ينجه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق، على أنه تطاول ليضاهى بأصابعه جود أياديه فقصر وتجسر، وركب خيل خيلائه ليحاكى بأسه فوق من جسور عجبه وتقنطر، وسمت نفسه كبرا لأن يبلغ قدره، فليل يا بحر هذا خليفة الله فى أرضه والله أكبر.

نعم رأى البحر الخضم ندى يديه يفيض على الورى منه بحار
فظل البحر ملتظما وأضحى على الحالين ليس له قرار

فلو زدت فى أيام غيره من الملوك المترفين، ومن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح المسلمين. كنت أيها الملك بلغت قصدك، وفعلت فى أبناء مصر جهداً. وكنت من الملوك الذين إذا دخلوا قرية أشعلوا فيها الأهلة، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها

(٢) فى الأصل: ضرورة.

(٣) ليست فى الأصل، ب.

1 البيض: جمع بيضة وهى الخوذة.

2 الأسل: الرماح والنبيل.

3 المللق: التضرع والدعاء.

أذلة. ولكن هب قبولك إداراء، ولاقت رحيك إعصارا. فليس لك به قبل، والسييل أدرى بالجليل. فما لك سبيل إلا بلاده، ولا طاقة بإياب الخير على عناده. فإنه خادم الحرمين، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين الصفين^(١). حامى السواحل والشغور، والمخدوم بأيادى السحائب وأصابع البحور، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر فلست المنصور. والرأى أن تقف مستغفرا، وتقول معذرا. لم أفرط بالزيادة في أيامه، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقيل آثار حوافر خيله ومواطىء أقدامه. وتتبع نواهيه وتمثل أوامره، وتدعو له كالرعايا بطول البقاء في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع، أن يرينا كوكب نوئك^(٢) عن قريب راجع، وكما أغنانا بزيارتك عن الاستسقاء، لا تحوجنا في نقصك إلى الاستصحاء، إنه قريب مجيب الدعاء.

وقال البدر بن الصاحب:

قد قلت لما أن تزايد نيلنا أوكاد ينزل دروة المقياس
يا نيل يا ملك المياه بأسرها ما فى وقوفك ساعة من باس

وقال أيضا:

طغى النيل عن حد عاداته وعلمنا الجهل فى العالمين
فصرنا نكشف عوراتنا وكنا نخوض مع الخائضين

وفى سنة خمس وثمانين وسبعمائة أقر (ماء النيل)^(٣) فكان ثمانية أذرع سواء، وجاء أول مسرى وهو على اثنى عشر ذراعا وأربع أصابع، فزاد فى رابع مسرى أربعين

(١) فى الأصل، ج: الظنين.

(٢) فى ب: نورك.

(٣) فى ب: قاع النيل. وفى ج: قاع المقياس.

أصبعاً، ومن الغد أربعاً وثلاثين، ثم أوفى اليوم الذى يليه، وانتهت زيادته إلى أصابع من واحد وعشرين ذراعاً، فغرقت مواضع عديدة وتهدمت عدة دور.

وفى سنة ست وثمانين كان القاع^(١) ثمانية أذرع وأربع أصابع.

وفى سنة إحدى وتسعين قال المقرئى: انتهت زيادة النيل إلى تسعة عشر ذراعاً وثمانية عشر أصبعاً، ولم يسمع مثل ذلك إلا فى النادر، وثبت إلى تاسع بابه. (وفى سنة ثلاث وتسعين أوفى ثالث مسرى وانتهت إلى عشرين من عشرين.

وفى سنة أربع وتسعين جاء القاع سبعة أذرع وعشرين أصبعاً، وفى سنة سبع وتسعين^(٢) بلغ ثمانية أصابع من عشرين ذراعاً وثبت إلى رابع بابه فكان طوفاناً. وفى سنة ثمان وتسعين ثبت النيل إلى أثناء هاتور على ثمانية عشر أصبعاً من تسعة عشر ذراعاً.

وفى سنة ثلاث وثمانمائة فى يوم الخميس سلخ ذى الحجة زاد النيل ثمانية وأربعين أصبعاً وتأخر عليه من الوفاء ستة عشرة أصبعاً أوفأها بالليل.

وفى سنة ست وثمانمائة توقف النيل، فأنتهى فى ثالث أيام النسيء إلى اثنين وعشرين أصبعاً من الذراع السادس عشر، ثم نقص ولم يوف فخرج القضاة والعلماء إلى الجامع الأزهر ودعوا وتضرعوا، وكسر أول توت وقد بقى من الوفاء أربع أصابع ووقع الغلاء.

وفى أول سنة سبع احترق النيل احتراقاً غير ما يعهد حتى صار الناس يخوضون من بر القاهرة إلى بر الجيزة وجاء القاع ذراعاً واحداً وعشر أصابع.

وفى سنة اثنتى عشرة قال المقرئى: من النوادر أوفى النيل وفتح الخليج فى أول يوم من مسرى، وبلغ من الزيادة ما يقارب اثنين وعشرين ذراعاً وثبت إلى نصف هاتور.

(١) فى الأصل: القائم.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

وفي سنة ثلاث وعشرين توقف النيل عن الزيادة وتمادى على ذلك أياما، ونودي في الناس بصيام ثلاثة أيام فصاموا، وخرج الناس للاستسقاء بالصحراء بالقرب من قبة النصر، فصلى بهم قاضي القضاة جلال الدين البلقيني وخطب، وحضر السلطان المؤيد راكبا (بمفرده على فرس)^(١)، وقد تزيا بزى أهل التصوف، فاعتم بمئزر صوف لطيف ولبس ثوب صوف أبيض، وعلى عنقه شملة صوف مرخاة^(٢)، وجلس على الأرض من غير بساط ولا سجادة، وباشر في سجوده التراب بجبهته، وبكى وانتحب.

قال المقرئ: وفي مشاهدة جبار الأرض^(٣) على ما وصفت ما تحشع منه القلوب وترجى رحمة جبار السماء.

قلت: أشار المقرئ بذلك إلى ما ورد في الأثر: إذا ذل جبار الأرض رحم جبار السماء. وقد سمعت شيخنا قاضي القضاة علم الدين البلقيني يحكى هذا المجلس ويذكر أن أخاه قاضي القضاة جلال الدين قال للمؤيد لما رآه في تلك الحالة: بتواضعك ترحم. ونقلت من خط شيخنا المذكور قال: نقلت من خط شيخنا الأخ جلال الدين ما نصه:

الحمد لله، اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، لما كان يوم الجمعة ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة حضرنا مجلس السلطان الملك المؤيد نصره الله تعالى لما توقف النيل عن الزيادة في أوانها سبعة أيام، ورسم بإشهار النداء بالصوم ثلاثة أيام والخروج في الرابع، فلما كان يوم السبت رابع عشرى جمادى الآخرة نودي بزيادة أصبع، وفي يوم الأحد بزيادة أصبعين فبرز مرسومه على لسان الشيخ تقى الدين بن حجة الحنفى بالخروج يوم الاثنين للصلاة شكرا. وقد قال أصحابنا: لو تأهبوا للخروج للصلاة فسقوا قبلها خرجوا للشكر

(١) في الأصل: على راكب بمفرد.

(٢) ليست في ب، ج.

(٣) في الأصل، ج: السماء. والصحيح ما أثبتناه بدلالة السياق.

والدعاء ويصلون على الصحيح، وأجرى الوجهان فيما إذا لم تنقطع المياه وأرادوا أن يصلوا للاستزادة، والأصح الاستحباب، فحيثُ هذا الخروج يشتمل على طلب الزيادة والشكر، وقد قال الأصحاب إن خطبة الاستسقاء يبدل فيها التكبير بالاستغفار، ووجدنا النص في الأم يقتضى أنه يكبر فيها كالعيد فجمعنا في هذه الخطبة بين الأمرين.

الخطبة الأولى

أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله .
أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر .
الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. ويذكر خطبة العيد التى فى الحمدلات بكما لها ثم يقال: أيها الناس ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾¹، إلى قوله ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾².

فبالله عليكم اشكروا نعمة الله عليكم، وأحسنوا كما أحسن الله إليكم، واذكروا نعمة^(١) الله إن كنتم إياه تعبدون واقصدوا باب الكريم فكل الخلق له يقصدون، ولا تقابلوا النعم بالعصيان، وتوبوا إلى ربكم واسألوه الغفران، وقد وعدكم ربكم^(٢) على شكر الزيادة من فضله الوافر الكامل البسيط المديد، وأوعد على مخالفة ذلك بالعقوبة وهو الغنى الحميد، فقال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾³، واعلموا^(٣) أن النعم وحشية

(١) ليست فى ب، جـ.

(٢) فى ب، جـ: مولاكم.

(٣) فى ب، جـ: واعلم.

1 سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.

2 السورة نفسها، الآية ٢٠.

3 سورة إبراهيم، الآية ٧.

فبالشكر قيدوها، والنفوس نافرة فبالصبر عودوها، وأثواب التوبة قد خلقت فبالاستغفار جددوها، وأبواب المعاصي قد فتحت فبالطاعة أوصدوها^(١)، ومفاتيح الجنان قد تشعث فبالإصلاح أرفدوها (ونعم ربكم عليكم كثيرة فعلى أنفسكم عددوها عدد^(٢) الأنفاس في اليوم واللييلة أربعة وعشرون ألفاً^(٣)) وبكل نفس نعمتان، ومن يقوم بشكر ذلك حقاً صرفاً، وفي الجسد ثلاثمائة وستون مفصلاً ومثلها من العظام، وفي كل واحد منها^(٤) ما لا يحصى من النعم الجسام، وفي استدارة الرغيف ثلاثمائة وستون نعمة في السموات والأرض وما بينهما من الأعراض والأجسام، من الأملاك والأفلاك والرياح والمعادن ومن يطبق على ذلك الشكر التام، ويخصكم في^(٥) جريان النيل الذي يجيء في أيام مألوفة، وينقص في أيام معروفة، وفي ذلك ما لا يحصى من الطول والإنعام، ونعمة الإيمان والعلم والنفس أعظم الإكرام^(٦)، فاشكروا مولاكم واعلموا أن الشكر نعمة جديدة، فمن شكر فقد استوجب بوعده الصادق مزيده، والصلوات الخمس فحافظوا عليها فهي النور والنجاة والبرهان يوم القيامة، وتاركها له الخيبة والحسرة والندامة، والزكاة فلا تكونوا لها من المانعين، فتكونوا من الخاسرين، ولم يمنع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء وذلك هو البلاء المبين، وقد نهاكم مولاكم عن أمور فاجتنبوها، الدماء فاحذروها، وإياكم وقتل النفس المحرمة فإنه من الأمور الخطيرة العظيمة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ١. وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم ولو بشر كلمة

(١) في الأصل: أوصدوها.

(٢) ليست في الأصل.

(٣) وقع اضطراب وتكرار في هذه العبارة بكل من النسختين ب، جـ.

(٤) ليست في الأصل.

(٥) ليست في الأصل.

(٦) في الأصل: الإيمان. وفي جـ: إكرام.

جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله « 1. ومن الأمور التي جاءت الشريعة بأنها من الكبائر ولا تقربوها، الخمر أم الخبائث فلا تشربوها، فقد أخطأ شاربها نجاحا، وحصل آثاما وترك فلاحا، وقد جاء في الحديث: « من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا » 2، وفي الحديث الحسن، « مدمن الخمر كعابد وثن » 3، ولا تنقصوا المكيال والميزان فلم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، ولا تنقصوا عهد الله ورسوله فما نقص قوم العهد إلا سلطت عليهم الأعداء بالتمكين، وأكثروا من الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، وسيد الاستغفار «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك على، وأبوء بذنبي، فاغفر لى، فإنه ^(١) لا يغفر الذنوب إلا أنت » 4. إن أحسن ما تلاه التالون وعمل به العاملون كلام من يقول للشئ كن فيكون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ 5. أمركم عباد الله وإياى (بالطاعة، بالتوبة) ^(٢)

(١) فى الأصل: إنه.

(٢) فى ب: بالتوبة والطاعة. وفى العبارة كلها اضطراب بالنسخة جـ.

- 1 أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٣٠٦/١٠) وابن ماجه فى سننه (٨٧٤/٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢٢/٨) كلهم عن أبى هريرة. وأخرجه البيهقى فى شعب الإبان (٣٤٦/٤) عن ابن عمر. قال ابن حجر فى تلخيص الخبير (٤/١٤): فى إسناده يزيد عن زياد، وهو ضعيف. بالغ ابن الجوزى فذكره فى الموضوعات.
- 2 أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٧/٢) والدارمى فى سننه (١٥٢/٢) وابن خزيمة فى صحيحه (٦٨/٢) وابن حبان فى صحيحه (١٧٩/١٢) وابن ماجه فى سننه (١١٢٠/٢) والحاكم فى المستدرک (٣٨٨/١) كلهم عن عبد الله بن عمرو. وقال الحاكم: وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.
- وأخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٢٣٥/٩) والترمذى فى سننه (٢٩٠/٤) كلاهما عن عبد الله بن عمر. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.
- 3 أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٢/١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤٥/١٢) والبزار فى مسنده (٣٦٦/٦) وابن حبان فى صحيحه (١٦٦/١٢) كلهم عن ابن عباس. قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (١٧٧/٣) رجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١١٢٠/٢) عن أبى هريرة.
- 4 أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٣/٥) عن شداد بن أوس.
- 5 سورة النور، الآية ٣١.

والتقوى فذلك ملاك الأمور، وعليه جميع مصالح الدارين تدور، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المؤمنين، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية (١)

يستغفر الله ويكبر كالأولى، ثم الحمد لله الذى تطول وأنعم، وأحسن وتفضل وتكرم، أحمده حمدا لا تقا بجلال حضرة قدسه، وأشكره ولا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها فى دنياه وآخرته ورمسه، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث لكافة الخلق من جنه وإنسه، ﷺ وعلى آله وصحبه وشرف وكرم.

أيها الناس، أكثروا من الاستغفار والتضرع لمولاكم فهو الرحيم الغفار، واسألوه من فضله الزيادة، وأقبلوا بقلوبكم على الطاعة والعبادة.

ثم يحول وجهه إلى القبلة ويقول: اللهم فارح الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنا فارحمنا رحمة من عندك تغننا بها عن رحمة من سواك، اللهم بقدرتك أجر نيلنا وبلغ به المنافع، وعم به جميع الأراضى والمزارع، اللهم وفر من الجنة مزاجه، وأكثر به البركة وادفع به الحاجة، اللهم أنزل علينا من بركات السماء وأنبت لنا (٢) من بركات الأرض، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، اللهم بالعباد والبلاد من الاحتياج إليه ما لا يعلمه إلا أنت، اللهم ارحم ضعفنا وقلة حيلتنا وعجزنا، ولا تؤاخذنا بما جنته أيدينا، اللهم قد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا.

ثم يلتفت إلى الناس ويقول: أيها الناس أوصيكم وإياى بتقوى الله وطاعته إلى آخر الميعاد، ثم يقول: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ١ الآية

(١) فى الأصل: الثالثة. ولعله سبق قلم.

(٢) فى الأصل، ب: علينا.

١ سورة الحشر الآية ١٠.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ 1 الآية ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ 2، ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا ﴾ 3 الآية، اللهم إنا ظلمنا، أنفسنا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاعف لنا مغفرة من عندك وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم. أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

قال المقریزی: فنودی من الغد على النيل بزيادة اثني عشر أصبعا بعد ما رد النقص وهو قريب من سبع وعشرين أصبعا فتباشر الناس باستجابة دعائهم ورجوا رحمة الله تعالى، ثم استمر في الزيادة إلى أن أوفى وبلغ ثمانية عشر ذراعا وثلاثة أصابع.

وفي سنة خمس وعشرين أوفى النيل في تاسع عشرى أيب وتغنت العامة: النيل أوفى في أيب، خش يا حبيب، وفي هذه السنة نودی عليه (في يوم) ^(١) بزيادة خمس أصابع فكثر، وتعجب الناس لذلك ثم ازدادوا تعجبا لوفائه قبل مسرى وانتهى إلى أصبع من (واحد وعشرين) ^(٢) ذراعا.

وفي سنة ست وعشرين جاء القاع ثمانى أذرع وعشر أصابع. قال المقریزی: وهذا مما يندر مثله.

وفي سنة ثلاثين انتهت زيادة النيل إلى سبعة عشر ذراعا وأصبعين فهبط بسرعة فكثر شراقي الأرض.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وجد بالنيل كثير من السمك والتماسيح حتى طفت على وجه الماء ميتة، وصيدت سمكة فإذا هي كأنها صبغت بدم من شدة حرمتها وكان ذاك عام الطاعون الكبير.

(١) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٢) جاء مكان ما بين القوسين في الأصل: واحد من عشرين.

1 سورة نوح الآية ٢٨.

2 سورة إبراهيم الآية ٤١.

3 سورة آل عمران، الآية ١٤٧.

وفى سنة أربع وثلاثين أوفى النيل فى تاسع عشرى أبيب. قال المقرئى: وهو من النوارد، وقد أدركنا ذلك وقع مرتين.

وفى سنة سبع وثلاثين أوفى النيل مرتين فى العام، فإنه أوفى أوله فى ثانى المحرم الموافق لسادس عشرى مسرى، وأوفى فى آخره فى رابع عشرى ذى الحجة الموافق السابع مسرى.

قال المقرئى: وهى نادرة قال: أذكر أنى أدركت مثل ذلك.

وفى سنة ثمان وثلاثين زاد النيل قبل أوانه، فما جاء وقت الزيادة حتى زاد أربعة أذرع وجاء القاع أحد عشر ذراعا، وهذا مما يندر وقوعه ولم ندرك مثله، وانتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وعشرين أصبعا.

وفى سنة ثلاث وأربعين نودى على النيل فى أول مسرى بزيادة خمسين أصبعا وأوفى سادس مسرى وانتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وعشر أصابع.

وفى سنة أربع وأربعين أوفى فى رابع مسرى وانتهت زيادته إلى إحدى وعشرين أصبعا من واحد وعشرين ذراعا.

وفى سنة أربع وخمسين لم يوف النيل وقد كسر الخليج، وقد بقى عليه من الوفاء أصبع فهبط وشرقت الأراضى ووقع الغلاء.

وقال الأديب شمس الدين النواجى فى ذلك:

ودب القحط فينا من أبيب
رأيت الله ألطف من (أبى بى) ^(٢)

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا
ولم ^(١) أضرع لمخلوق لأنى

وقال أيضا:

ولا الناروز جاء ^(٣) ولا الصليبي ^(٤)
فقلت الله أرحم من أبى بى

وقالوا النيل ما أوفى بمسرى
وشهر أبيب ما وافى برحمى

(٢) جاء مكان ما بين القوسين فى ب، جـ: أبيب.

(١) فى جـ: وكم. وهو تصحيف يقلب المعنى.

(٣) فى ب، جـ: جار.

(٤) فى الأصل: الصليب.

وقال أيضا:

قالوا وهى النيل عن قواه فما اسـ ستطاع يوفي^(١) لعظم ما نابه
عساه فى بابه يصب لنا فقلت ذا النيل ماله بابه

وقال الشهاب الحجازى:

مذ بادروا بفتح سد قبل الوفا كسرنا
وأبصر الناس من ذاك حسا ومعنى كسرا

وقال النواجى أيضا رحمه الله تعالى:

لرب العلا نشكو أذى القحط والغلا وما مسنا منه^(٢) من الضر والبلا
ونسأله من البأس واليأس والرجا رخاء^(٣) فقد متنا وعاجلنا البلى
غلا أرخص الأرواح لما تسعرت بمورا^١ ضرام فى حميم الحشا غلا
ودارت (رحى الجذب)^(٤) فى كل بلدة وما تركت للخصب فى مصر منزلا
فلا بر يرجى منه بر بيره ولا بحر رى طاب عذبا وسلسلا
ولا عين أرض قد بكت فتفجرت علينا ولا دمع من الغيث أهملنا
ولم يتخلق بالوفا نيل مصرنا ولا ذيل ستر بالهنا راح مسبلا
ومذ غاض مقياس المنى ضاق عيشنا وأحمل ربع الأنس والصبرما حلا
به الأغنيا يشكون فقرا وفاقة فكيف بمن أمسى معيلا ومعولا

(١) ليست فى الأصل.

(٢) فى ب، ج: فيه.

(٣) فى الأصل: رجا.

(٤) فى الأصل: رجا الجذب. وفى ج: رجا الجذب.

1 بمور: المور: الاضطراب.

حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد يئسنا وكل الخلق أصبح مبتلى
فما مملق إلا إلى بابك التجى ولا معدم إلا عليك توكلنا
وسقيا ورعيا للمواشى فقد بدت كلاها وكل السير فى طلب الكلا ^(١)
وإن تاه قوم بالغلا ^(٢) وترفعوا علينا ومالوا للقطيعة والقللى
فوالله لا نرجو سواك ولا نرى لهم أبدا فضلا علينا ولا ولا
إليك توسلنا بجاه نبينا فما خاب من أمسى به متوسلا
وقال أيضا فى سنة خمس وخمسين وقد من الله بوفاء النيل:

الحمد لله وافى نيلنا ووفى وبل غلة قلب كان قد نشفا
وعاد ماء حياة الزرع منهمرا إلى مجاريه فياضابها كلفا
نعم جرى الماء فى عود الحياة ودب البرء ^(٣) فى السقم ممزوجا بكل شفا
من الجنان هما ينبوع كوثره يا طيب عنصره ريا ومرتشفا
جرى على أجمل العادات منبسطا وما ^(٤) توقف يوما لا ولا وقفا ^(٥)
كأنه ملك وافى لينظر فى أمر الرعية إن ضرا رأى كشفا
حاكت لجوشنه 1 كف الصبا زردا 2 بجيش موج على جيش ^(٦) الغلا زحفا
طاب البلاد وجاب الأرض مقتنيا آثاره يتلافى منه ما تلفا

(١) فى الأصل: الحلى.

(٢) فى ب، جـ: بالغنا.

(٣) فى الأصل: البوء.

(٤) فى الأصل: ولا.

(٥) فى جـ: توقفا.

(٦) فى ب، جـ: أرض.

1 لجوشنه: أى لصدره.

2 زردا: الزرد: الدرع.

كأنما يتحرى فى عهده
 كم منية من صعيد الأرض يممها
 باهى بها الفلك فى أسنى مطالعها
 وبحر يوسف أبدى حسن منظره
 ومنذ أهدى بجلوان حلاوته
 ما شاب مفرقه الميمون من هرم
 بل جاء ركضا وسيم الوجه يسبح في
 قد زيد فى حرثه فانساب منطلقا
 وافى بمفرده من قوص منحدرًا
 مخلقا لعمود الصبح قد ضرر الـ
 دقت بشائره فى مصر وانتشرت
 وافى يشار إليه بالأصابع بل
 أرخى على الناس ستر العدل فانتشروا
 صيغت خلاخيل للأشجار منه ومن
 واستوحش النبت حتى الأرض فى حلل
 تحكى السماء وتحكيه حلى وعلا
 كلاهما جرت الأفلاك^(١) فيه وقد
 كأنما هو مرآة لها جلّيت
 مواقع السقى أنى سار أو عكفا
 بالمسح من وجهها القبلى ما انكشفا
 جواريا ذات ألواح تلت صحفا
 بالصب فى ألف يوم قد صفا وصفا
 راقت ببال مشوق للقا دنفا
 ولا أبو الهول منه قلبه رجفا
 تياره وعلى التكرور كم رأفا
 فدانه وسقى ماء الحياة وشفي
 فى كلة^١ وبأرزاق الورى قذفا
 فسطاط حين رأى المقياس وانعطفا
 راياته بقلوع آذنت بوففا
 بفيض فضل أياد عهدها سلفا
 فى روضة من شذاها أصبحت أنفا
 قلائد الطلع حلى جيدها تحفا
 تحلى ومن قرطه قد ألبست شفا 2
 وأنجما وبروجاكم حوت شرفا
 حفت بحافته الأملاك فائتلفا
 بالصقل أو هى مرآة صفت وصفا

(١) فى الأصل: الأملاك.

1 كلة: أى: قبة كالتى تبنى على القبور.
 2 شفا: الشنف جمع شنف، وهو القرط.

سقى لديه ورعيا كم أمد قرى
من كل فارس خيل نال منزلة
على بساط الربى (بانت محلته) ^(١)
كأن حمرة ^(٢) لون منه قد صبغت
حدث عن البحر يا هذا ولا عجب
فى مصر شمت بلاد الرى عامرة
أروى الغريين عنه فى زيادته
إن ^(٤) زاد غاضت مياه الأرض قاطبة
وكم تكدر يوما فى زيادته
قد رق طبعا فما أحلى زوائده
وكم تملق حتى خاض واردة
فما ابن ماء سماء وابن زائدة
إلا كقطرة ماء منه قد قطرت
لو لم يكن فى سراه من أقاصى أسد

منصورة بجنود للندا خلقا
يهدى لفارس كور بحرها طرفا
وثغر دمياط من أرياقه 1 رشفها
بفوة أو دم للمحل قد نزفا
يعمر الأرض إذ يستهدم الجرفا 2
وباسمه جبل الريان قد هتفا
والنقص مختلفا منها ومؤتلفا ^(٣)
أو غاض زادت وكل قدره عرفا
فراق عيش البرايا عنده وصفا
فى الذوق لو مر فى قلب الصفا لطفنا
فيه وقابل منه رقة بجفا
وقاتل المحل جودا أو أبو دلفا 3
بل كلهم من ندى راحاته اغترفا
وان وقوص إلى أن عاد وانصرفا

(١) فى الأصل: كانت محلقة..

(٢) فى الأصل: خمرة.

(٣) فى ب، جـ: وهو ما تلفا.

(٤) فى الأصل: إذ.

1 أرياقه: الأرياق جمع ريق.

2 الجرفا: شق الوادى إذا حفر الماء فى أسفله.

3 أبو دلف: هو القاسم بن عيسى بن معقل بن إدريس العجلي، سيد قومه، أمير أخذ عنه الأدباء الفضلاء والشعراء المجودون، وكان له صنعة فى الغناء.

إلا ليروى آثار النبي ومن
محمد صاحب الخوض الروى إذا
من نال منه شرابا فى القيامة لم
من نيل منه له كم راح مغترفا
أغائنا بعد كسر نالنا فرفا^(٢)
وجدانا منه غيث صيب غدق
يا منزل الغيث فضلا بعد ما قنطوا
ارفع بحقك عن مصر الغلا وقنا
لييك لبيك داركنا بمغفرة
وصل أركى صلاة والسلام على
ما انهل فى الجذب غيث قد طفا فجنى

روى الورى بغواى¹ كفه لكفى
ما جاءه الوارد الظمان ملتهفا^(١)
يظماً وصادف ربا فيه كل شفا
ظام وبالفصل منه جاء معترفا
بالجبر ما ارتكب الخزان واقترفا
وزاد وكفا² فقلنا حسنا وكفى
وناشر الرحمة العظمى بحسن وفا
صعيد نار بها ربع الرخا عفا
وجد حنانيك وارجم أمة ضعفا
نيك المصطفى الراقى الذرا^(٣) شرفا
أيانع الزهر كف الخصب واقتطفنا

وفى سنة سبع وستين توقف النيل أياما عن الزيادة ثم زاد وكان صادف ولاية
قاض حنفى جديد فقال صاحبنا الشهاب المنصورى فى ذلك:

بقاضى القضا استبشرت مصر وانتضت على المحل ماضى نيلها المتتابع
ومذ قيل من أولى^(٤) بمرتبة القضا على مذهب النعمان من كل بارع
أشار إليها بالأيدى مليكها وأومى إلينا نيلها بالأصابع

(١) هذا البيت ليس فى ب، جـ.

(٢) فى ب: فرقا. يقال رفا الثوب ونحوه رفوا، أى: أصلحه وضم بعضه إلى بعض.

(٣) فى ب: الرزى. وفى جـ: الذى.

(٤) فى ب، جـ: ولى.

1 بغواى: الغواى جمع غادية، وهى السحابة تنشأ فتمطر غدوة أول النهار.

2 وكفا: الوكف: سيلان الماء وغيره قليلا قليلا.

وقال أيضا:

ومجرى جارهما نيلنا وقاضى القضاة بنفع البلاد
لهذا أصابع مخصوصة وذا عمت الناس منه الأيادى

وفى سنة ثلاث وثمانين أوفى النيل فى تاسع عشر أبيب.

وفى سنة تسع وثمانين انتهت زيادته إلى اثنين وعشرين أصبعا من ثمانية عشر ذراعا (وهبط بسرعة فى أواخر مسرى وكان مبدأ الغلاء.

وفى سنة تسعين انتهت زيادته إلى سبعة عشر ذراعا) ^(١) فاشتد الغلاء.

وفى سنة ثلاث وتسعين زاد قبل أوان زيادته نحو ذراعين وجاء القاع ثمانية أذرع وعشرين أصبعا.

وفى سنة أربع وتسعين أوفى النيل فى آخر يوم من شعبان وكسر أول يوم من رمضان ووافق سادس مسرى.

وفى سنة خمس وتسعين نودى عليه فى ثالث مسرى بثلاث وثلاثين أصبعا، وذلك من النوادر، ثم أوفى فى رابع مسرى الموافق لعاشر رمضان.

وفى سنة ست وتسعين أوفى يوم عيد الفطر وكسر ثانى شوال فتوالى يوما عيد، وقد قلت أنا فى ^(٢) هذا الوفاء:

يوم	عيد	الفطر	وافى	بهناء	وسعاده
ختم	الصوم	وأوفى	النيل	فى	أحسن عاده
يا	له	من	يوم	عيد	فيه
				حسنى	وزياده

وفى سنة سبع وتسعين أوفى فى منتصف مسرى [وزاد إلى أن بلغ سبعة عشر

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) ليست فى الأصل.

أصبعا من ثمانية عشر ذراعا (في ثانی عشری مسری) ^(١) [٢] ثم وقف عن الزيادة أياما وأخذ في النقص فهاج ^(٣) الناس وارتفع السعر، ودام التوقف سبعة عشر يوما ونقص ^(٤) فيها سبعة عشر أصبعا، ثم من الله تعالى بالزيادة وفرج ^(٥). وعملت في ذلك المقامة البحرية وهي هذه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ١. لما كان سنة سبع وتسعين وثمانمائة أوفى النيل في منتصف مسرى، وسارت به في البلاد رسائل البشرى، وأرسلت منه نعم الله على العباد تترى، ورأوا فيه من آيات ربه الكبرى، وحمدوه وإن كانوا عاجزين عن القيام بحقه شكرا. وما زال بحره البسيط المديد، يروى عن ثابت ويزيد، إلى أن زاد من الذراع الثامن عشر سبعة عشر أصبعا، وذلك إلى الثاني والعشرين من مسرى الموافق ليوم الأربعاء، والناس من شأنه في أمان، ومن رخاء السعر في اطمئنان، قد انحلت عرى الأسعار، وتناشدت في ذلك الأدباء للأشعار، وذهب النار والشنار²، وصار القمح كل ثلاثة أراذب بدینار، فوقف مد النيل عن الامتداد، وبدأ فيه النقص بعد الازدياد، فانتظر الناس أوبته، وترقبوا منه أن يوفى من الزيادة نوبته، فاستمر على الوقوف، وانكشف لنقصه السواحل والجروف، وانكسف بدره الطالع بما رقم موجه على الأرض من الجروف، وتمثل أرباب الأراضي والمزارع، وأصحاب المراعى والمرايع والمرايع.

(١) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في بـ.

(٣) في ب، جـ: فهاج.

(٤) في الأصل: ووقف.

(٥) ليست في ب، جـ.

1 سورة الشورى، الآية ٢٨.

2 الشنار: الأمر المشهور بالقبح.

وأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خائنه فروج الأصابع

لا تفتح ترعة لجرى الماء منها إلا وقف، ولا يجسر بجسر بسقى الأكف وما وكف بكف، وسكت المنادى بزيادته ألفا، ونطق خلفا، وصارت الروضة النضرة بعد تلك الخضرة موردة الحلفاء، وصب الياس، على أهل المقياس، وصارت دار النحاس أنحس دار، وجرت الأقدار على أهل مصر بالأكدار، وقيل: يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى، ويا زيادة النيل من حيث جئت فارجعى، وغيض الماء، وانقشعت السماء، وقضى الأمر، واستوت القلوب على أحر من الجمر، فحينئذ ماج الناس موجا، وارتقى سعر القمح وغيره من الحبوب أوجا، (وازدحمت حلقة البطالين بأقوام، وطارت نفوسهم جزعا وأصبحوا)^(١) فى أمرهم حيارى، وانهمك على شراء القمح المسلمون واليهود والنصارى، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، كأنما قامت عليهم القيامة، وسقطت عليهم الغمامة، وكل من ورد البحر وصدر يقول يا الله السلامة، وعاد بعض الناس على بعض بالملامة^(٢)، وعض التاجر على شراء القوت^(٣) على يديه من الندامة، وأنشد لسان الحال فى المقامة:

وربما فات قوما جل أمرهم من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

وتذكر الناس ما يحكى عن الإمامين، وذلك أن مالكا أوصى الشافعى إذا سكن مصر بادخار قوت عامين، ونسوا ما تقدم فى هذا العام من هول الطاعون، وذهلوا عما رأوه^(٤) لهم الواعون، وذلك لما عندهم من حرارة الغلاء المتقدم من أمم^١، وما قاسوه فيه من الشدائد وما بالعهد من قدم، فخشوا عود مثل ذلك، وهابوا حلول

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: وأصبحت الناس.

(٢) فى الأصل: بالندامة.

(٣) فى ب، جـ: القمح.

(٤) كذا بالأصل. وفى ب، جـ: واوه. ولعل الأقرب إلى السياق رواه.

١ الأمم: القرب.

تلك المهالك، وكاد أن يحف الخليج، وصار الناس في أمر مريع، وقالوا قد شرقت البلاد، وغربت العباد، وشرقت الصدور حين شرقت، وأظلمت الأبصار والبصائر وما أشرقت، وتوهج في قلوب الناس الحريق، وكبروا ولا ينكر التكبير أيام التشريق، وألقى في نفوسهم الرهب والرعب، وأشربوا في قلوبهم من الحب الحب، وخلا البر من البر، وصار أعز في الوجود من الدر، وزنه الوزان، وخزنه الخزان، وتوقدت الخزان، وقالوا هذه أيام التشريق لكن بغير عيد، وهذا السير هو الطالع لكنه غير سعيد، وجاعت الأنفس بعد أن كانت شبعى، وأصبح كل في شراء القوت كأنه حية تسعى، وبذلوا فيه الذهب والمرجان، وتدكدك عليه من الرحمة أمم كأنهم جان، وباع من لم يجد نقده، لشرائه أعز ما عنده.

وقال المقرئ: ما هذا التعسير بعد التيسير، وما لنا عدنا نروى عن قل بن قل¹ بعد ما كنا نروى عن ابن كثير، ما هذا إلا أمر مهم، وخطب ملم، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

وقال المحدث: هذا خبر معضل 2، عوقب به من ضل، أجزعتهم مما سيق إليكم، إنما هي أعمالكم ترد عليكم.

وقال الفقيه: قد شرقت كل نجوة، وضافت كل فجوة، وهذا زمان تأسيس مد قمح لا قاعدة مد عجوة.

وقال الأصولي: قد ضاق النطاق، وجاء تكليف ما لا يطاق.

وقال الجدلي: هذا المبيع في الصورة متصايره، وهى في المعنى مصادره^(١).

(١) فى الأصل: متصادره. والمصادرة عند علماء البحث والمناظرة: أن تجعل نتيجة دليلك واحدة من مقدمتيه مع تغيير فى اللفظ توهم به التغيرات بينهما فى المعنى. كأن تقول: « هذا أسد، وكل أسد فهو ليث، فهذا ليث ».

1 قل بن قل: تطلق على من لا يعرف هو ولا أبوه.
2 الحديث أو الخبر المعضل - فى مصطلح الحديث -: ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالى.

وقال الصوفي: لو اتقيتم الله لانزاح عنكم الضير، ولو أنكم تتوكلون على الله حق
توكله لرزقكم كما يرزق الطير.

وقال الفرضي: قد تكدرت المهايأة 1، وتنكرت المعاياة 2، ووقع القول، ونقص
العول 3، وكثر الطول، وقل النول، وعظم الهول، فلا حول.

وأصبح النحوى يلتقط الحب كأنه ابن عصفور، ويقول: السعر ممدود والمال
مقصور، وأنا وكتبي للبيع جار ومجورور، لقد لقينا أمرا 4، وضرب زيد عمرا.

وقال التصريفي: قد ساءت الأحوال وجلت، ونقصت الأفعال واعتلت، وزاد
الغم، وفك المدغم، ووقعنا في تعسير، وصار جمعنا جمع تكسير.

وقال اللغوى: رب عجلة تهب ريثا 5، ورب غيث لم يكن غيثا، ولا يدرى
من ^(١) بسط له حال من عليه قدر 6، ويحسب الممطور أن كلا قد مطر.

وقال المعنوى: ترى هل نرى للأرض من حقل، ويقول المؤمن: أنبت الربيع
البقل، ويمتد من خيام الملق 7 الإطناب، ويوفى الكيل من الزرع بالمساواة
والإطناب ^(٢).

(١) فى الأصل: فى.

(٢) فى الأصل: بالإطناب.

1 المهايأة: قسمة المنافع على التعاقب والتناوب.

2 المعاياة: إلقاء كلام أو مسألة لا يهتدى لوجهها على الغير لقصد إظهار عجزه أو بيان فضله.

3 العول - فى المواريث -: هو إذا ضاق المال عن سهام أهل الفروض فى الميراث تعال المسألة، أى ترفع
سهامها ليدخل النقص على كل واحد بقدر فرضه، لأن كل واحد يأخذ فرضه بتمامه إذا انفرد فإذا
ضاقت المال وجب أن يقتسموا على قدر الحقوق.

4 إمرا: عجيبا منكرا.

5 ريثا: بطئا.

6 قدر: ضيق.

7 الملق: الأرض المستوية.

وقال البياني: ترى هل يظفر الجسور بالإحراز، ويكون للماء إلى حقيقة المزارع مجاز.

وقال البديعي: هذه براعة استهلال، تؤذن بالإقلال، وتشعر بوضع الأغلال، على مخازن الغلال.

وقال العروضي: هذه المفاصلة الكبرى، والدائرة التي دارت على الأيام تترى وقال الشاعر العربي:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
وقال الشاعر المولد:

نيروز مصر بلا اكتفاء يعد صفعا بغير ماء
وقال الكاتب: قد رقت ^(١) الحواشى، وضعفت المواشى، والأمر متحقق متلاشى، وما تنفع الطوامير 1، إن لم يكن معها مطامير 2.

وقال الطيب: هذه أيام بحران 3، يخشى منها الهلاك إن لم يلتق البحرين، وإن لم تنضج مادة الزيادة لم يحصل الشفا، وما لم يبلغ الماء القانون المعتاد فالناس على شفا.
وقال الموسيقى: قد خف الجواز، وحجز بين الماء والصعيد حجاز.
وقال المنطقي: هذه قضايا مختلطات، ورزايا غير منضبطات، ما هذه إلا بلية، قد أصبح البر من البر سالة كلية 4.

(١) فى الأصل، جـ: زفت.

1 الطوامير: جمع طامور، وهى الصحيفة.
2 مطامير: جمع مطمورة وهى المكان المهيأ لحفظ الشئ.
3 بحران: نسبة إلى باحور أو باحوراء، والمراد به شدة الحر. والأطباء يسمون التغير الذى يحدث للعليل دفعة فى الأمراض الحادة: بحراناً.
4 السالبة الكلية - فى المنطق -: هى القضية التى سلب فيها المحمول عن جميع أفراد الموضوع. فيكون معنى الشاهد الذى نحن بصدده: لا بر فى البر. أى لا يوجد أى نوع من البر فى أى مكان من البر.

وقال الميقاتي: قد جفت المقنطرات (وانشقت^(١) المقطرات)^(٢) ونفذ ما في الجيب، والمرجو ما في الغيب، وصرنا كالمثل السائر شهرة (في العام)^(٣) ومثله، وإن دار هذا الغلاء الدائر لم يبق معه فضلة.

وقال المؤذن: يا قوم ما هذا التبريح، ونحن قوم نعيش بالتسبيح.

ودام التوقف سبعة عشر يوماً تبعاً، ونقص فيها سبعة عشر أصبعاً، فبينما الناس في اليأس، مترقبين حلول البأساء والبأس، لم يفجأهم إلا أهلة النعمة وقد أهلت، وسحب الرحمة وقد انهلت، ومن بزيادة البحر البر الرحيم، ونادى^(٤) المنادى: زاد النيل المبارك ثلاثة أصابع من عند الكريم، فانشرحت الصدور، وأيقنت بالخير^(٥) والحبور، وتبدلت الشرور بالسرور، وتباشر الخلق بالرخاء، وسمحت الأنفس بالسخاء، وفاح عرف الزيادة بالأرج، وقال لسان الحال (لأمين المقياس)^(٦): حدث عن البحر ولا حرج.

وقال المقرئ^(٧): قد بلغت الأمنية من النيل وهو حرز الأمانى ١، وهنينا بتوجهه للزيادة وذلك وجه التهاني، وصرنا نروى حديث البحر والبلاد والمزارع، عن ابن كثير وابن عامر ونافع، وظهر مصداق ما نتلوه ذكراً، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ٢.

(١) في الأصل: واشتقق.

(٢) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٣) ما بين القوسين ليس في جـ.

(٤) في جـ. وزاد.

(٥) في ب، جـ: الخير.

(٦) ما بين القوسين ليس في ب، جـ.

(٧) في الأصل: المقرئ. ولعله سبق قلم من الناسخ.

١ المراد بقوله حرز الأمانى الإشارة إلى كتاب: «حرز الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبع للسبع المثاني». وهى القصيدة المشهورة بالشاطبية للشيخ أبى القاسم بن فيره الشاطبى الضرير المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٠هـ.

٢ سورة الشرح: الآيتان ٦، ٥.

وقال المحدث: اشكروا الله على إبلاتكم، وإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم¹، قد زال الرين، وصح ما روى «لن يغلب عسر يسرين»²، فقيدوا هذه النعمة بسلسلة الطاعة، وصلوا لمن بتقوى الله تأمنوا انقطاعه.

وقال الفقيه: قد جاوز الماء القلتين، وتلاطمت أمواج الحرتين^(١)، وتيمم الماء الصعيد الطيب، وصاب على المشرق والمغرب منه صيب.

وقال الأصولي: هذا العام المراد به الخصوص، وهذا الظاهر القاضي على النصوص.

وقال الجدلي: الآن نقح المناط³، وأغنى هذا الوارد عن الاستنباط.

وقال الصوفي: من انقطع إلى الله آواه، ومن توكل عليه كان حسبه وكفاه.

وقال الفرضي: قد صلح الرد⁴، وصح العد، وقاسم الجد، وصارت الأنصباء مستغرقة، وقسم الماء على الفروض طبقة طبقة.

وضم النحوى إليه كتبه، وقال الآن استوى الماء والخشبة، قد زال الغم والههم، وصار البر الكر^(٢) قفيز بدرهم، وسئل أشعيرا تريد أم برا، فقال: كلاهما وتمرا.

وقال التصريفي: قد زال الرك^(٣)، وطاح^(٤) الشك، وقوى الفك، وزاد المد، وخف الشد، وحسن الرد.

(١) في ب، جـ: البحرتين.

(٢) ليست في ب. وفي جـ: كم. والكر: مكيال لأهل العراق ومقداره ستون قفيزا أو أربعون إردبا.

(٣) في الأصل: الترك. ولعل الرك هنا بمعنى الضعف.

(٤) في ب، جـ: وصح.

1 الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٦١/٣) عن سعد بن أبي وقاص.

2 أخرجه مالك في الموطأ (٤٤٦/٢) موقوفا على عمر بن الخطاب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٦/٧) موقوفا على عبد الله بن مسعود. وقال البيهقي: وقد روى من وجه آخر مرفوعا، وهو ضعيف.

3 تنقيح المناط - عند علماء البحث والمناظرة وأصول الفقه - هو إلغاء بعض الأوصاف التي أضاف الشارع الحكم إليها لعدم صلاحيتها للاعتبار في العلة.

4 الرد - في اصطلاح علم المواريث - هو صرف ما فضل عن فروض ذوى الفروض ولا مستحق له من العصباء إليهم بقدر حقوقهم. وهو نقيض العول السابق ذكره.

وقال اللغوى: هذا المقبل المقبل^(١)، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، قد بان البيان، والتقى الثريان^(٢)، ورويت الربى^(٣)، وبلغ الماء الزبى 1، وكمن الغيث على العرفجة 2، وأيقنا بكل ألوان بهجة، ودعه يعبث ولا يبل، فالغيث يصلح ما خبل.

وقال المعنوى: ما أحسن هذا الإسناد، المقصور علينا قصر أفراد 3.

وقال البيانى: ما أحسن هذا الإمداد، المؤذن بكثرة الرماد، فليثر به المثنى، وفي التلويح ما يغنى.

وقال البديعى: قد زال الإيهام والإيهام 4، وحسن التوشيح 5 والاستخدام 6، فالحمد له على حسن الختام 7.

(١) فى الأصل، ب: المقبل.

(٢) فى ب: الريان. والتقى الثريان: وذلك أن يجيء المطر فيرسخ فى الأرض حتى يلتقى هو وندى الأرض.

(٣) فى الأصل: المربى.

1 الزبى: جمع زبية، وهى الرابية لا يعلوها الماء.

2 العرفجة: نبات سهلى سريع الاتقاد طيب الرائحة. والجملة « كمن الغيث على العرفجة ». أى: أصابها المطر وهى يابسة فاخضرت. وهى مثل يقال لمن أحسنت إليه، فقال لك: أتمن على؟

3 قصر أفراد - عند البلاغيين -: هو القصر الذى يخاطب به من يعتقد اشتراك شيئين أو أشياء فى أمر واحد، والغرض منه قطع اعتقاد تلك الشركة التى اعتمدها المخاطب. مثل: ما شجاع إلا على. ردا على من اعتقد اشتراك زيد معه فى صفة الشجاعة.

4 الإيهام: ويسمى التوجيه، وهو أن يؤتى بكلام يحتمل على السواء معنيين متباينين كهجاء ومديح.

5 التوشيح - فى علم البديع -: هو أن يكون فى أول الكلام ما يستلزم القافية. كقول البحرى:

فليس الذى حللته بمحلل وليس الذى حرمته بحرام

6 الاستخدام: هو أن يذكر لفظ له معنيان، فيراد به أحدهما، ثم يراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنيه ثم بالآخر معناه الآخر.

والمشهور الأول ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد بالسماء الغيث، وبالضمير الراجع إليه من " رعيناه " النبت. و " السماء " يطلق عليها.

7 حسن الختام: أن يكون فى ختام الكلام روعة تهتز لها النفس ويضطرب لها السمع، كقول الشاعر:

عليك سلام نشره كلما بدا به يتغالى الطيب والمسك يختم

وقال العروضي: قد زحف المديد الوافر، وجرت السفن حيث يقرع الحافر،
وقصر الطويل، وسكن العويل والزويل¹، وحصل اللطف المتدارك، فجعل^(١) الله
تبارك.

(وقال الشاعر العربي:

وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا)^(٢)

وقال الشاعر المولد:

زادت أصابع نيلنا (وطمت^(٣) فأكدت الأعادي)^(٤)

وأنت بكل مسرة ما ذى أصابع ذى أيادي

وقال الكاتب: قد شربت البقاع، وسيرت الرقاع، وأيقن بالرى كل قاع، ونسخ
غلاء القمح والشعير، وانحط السعر نحو الثلث والثلث كثير.

وقال الطيب: قد صلح النبض، وحصل البسط بعد القبض.

وقال المنطقي: قد وضع الجد، وصلح الرسم والحد.

وقال الموسيقى^(٥): قد صرنا في عراق، وصفا الوقت وراق.

وقال المؤذن: سبحان فائق الإصباح، وما حق ذاك الديجور² بهذا الصباح.

وقال الميقاتي: قد خلا ربع المصيطرات، وامتلاً ربع المقنطرات.

(١) في الأصل: فجعل.

(١) ما بين القوسين ليس في ب، ج.

(٢) مكان هذه اللفظة بياض بالأصل.

(٣) جاء مكان ما بين القوسين في ج: وطف وطافت في البلاد.

(٤) في الأصل: الوسيقي.

1 الزويل: الحركة والقلق.

2 الديجور: الظلام.

ونادى فى الناس حى على الفلاح، وأعلن بالصلاة على النبى والسلام، واقتفى نداءه كل خطيب وإمام، وابتهل سائر الخلق بالدعاء، ودعوا ربهم تضرعا، وقالوا اللهم قنا العيث 1، واسقنا الغيث، وأنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، وأنزل لنا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الأرض، وابسط لنا من خزائن رحمتك ما يزول به القبض، وتلا لسان الحال على المؤمنين: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ 2.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر فى إنباء الغمر: لطيفة:

اشتهر بين الناس أن الذى يريد أن يعرف مقدار نيل السنة ينظر فى أول يوم من مسرى إلى منتهى الزيادة فيزيد عليها ثمانية أذرع، حتى سمعت الإمام عز الدين بن جماعة يحكى ذلك عن أبيه عن جده وأن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة كان يعتمد ذلك ويدعى أنه لا يخطئ. قال فاتفق أنه اخطأ فى سنة خمس عشرة وثمانائة، فإنه كان أول مسرى قد بلغ ستة عشر ذراعا فلو زيد ثمانية لبلغ أربعة وعشرين ولم يقع ذلك.

وفى سنة اثنتين وعشرين وثمانائة فإنه كان أول يوم من مسرى بلغ ثمانية أذرع وثلاثة عشر أصبعا، وقد انتهى فى هذه السنة إلى ثمانية عشر ذراعا وثلاثة أصابع. وقال المقرئى فى السلوك: من أقوالهم: إذا لم يوف النيل فى مسرى فانتظره السنة الأخرى.

1 العيث: الفساد.

2 سورة الأعراف، الآيتان ٥٥، ٥٦.